رؤى

نروي لنرتوي

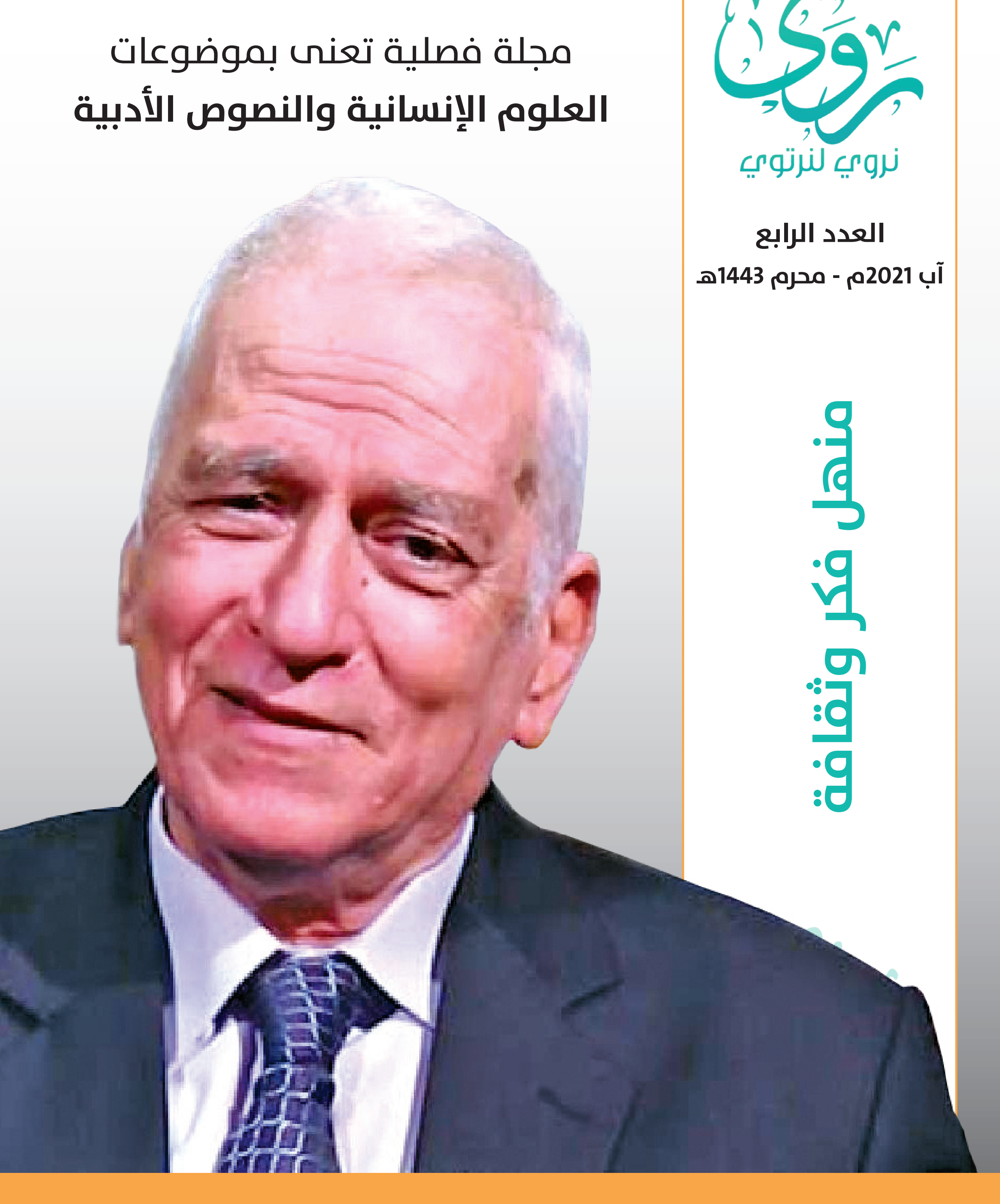
العدد الرابع

آب 2021م - محرم 1443هـ

مجلة فصلية تعنى بموضوعات

العلوم الإنسانية والنصوص الأدبية

منهل فكر وثقافة



شيخ المؤرخين العراقيين عماد عبد السلام رؤوف



العدد الرابع
آب 2021م - محـرم 1443هـ

مجلة فصلية تعنى بموضوعات
العلوم الإنسانية والنصوص الأدبية



صدرَ هذا العددُ بدعمٍ من أحَد رُعاة الثقافةِ شكرَ اللهُ لهُ إحسانَه

تتشرَّف المجلَّة باسْـتقبال المَقالات الثقافيَّة مِـن أصحـابِ الأقـلام الرَّزينـة والأفـكار الرَّصينة، في مَجال العُلوم الإنسانيَّة، بالإضافة إلى النُّصوص الأدبيَّة بأجناسِها المتنوِّعة.









هذه المجلة:

هي مجلة عراقية فصلية مستقلة غير تابعة لأية جهة، تُعنى بموضوعات العلوم الإنسانية ونشر النصوص الأدبية، تسعى إلى أن تكون في مَصافّ المجلّات الرَّصينة، التي تبقى خالدة بما حوته من صَفو الفكر وعَذب الأدب ونقاء الثقافة.. ينهل منها الجيل بعد الجيل.. تروي عُطاشَى العلم والأدب، فينعكس رواؤهم منها إلينا، وإلى سلاسل بني آدم من بعد.. وما هذا بضربٍ من الأمنيات، إنما هو عمل، وبالعمل يتحقق الأمل.

ومن حَقِّ القرّاء وعدٌ بأنَّ مجلَّتهم هذه لن تتنازل عن هذا المستوى، حتى لو لم تَنشر إلا مقالة واحدة، تحافظ بها على مكانتها التي تنبع من مكانة العلم سموًّا ورِفعة، أو أنْ تُوقِفَ مشوارها بعزةٍ وكرامة، دون أن تهويَ إلى القاع، أو تجاريَ السفَهَ الذي ينبو عنه ما صَحَّ مِن العقول والطباع.

يقوم على تحرير المجلة شبابٌ آمنوا بالكلمة وأيقنوا بخطورتها، فأخذوا على عاتقهم حمل رايتها.

أمّا كُتّابُها فهُم ثلّة من أصحاب الأقلام الرزينة والأفكار الرصينة من المثقفين والأدباء والعلماء، وكل مَن سلك سبيلهم من الكتّاب الواعدين هواة الأدب والثقافة، فترحب المجلة بمشاركاتهم، ليسلكوا السبيل الموصل إلى مصاف المتقدِّمين.

ضوابط النشر:

تتشرف المجلة باستقبال مشاركاتكم في مجالات العلوم الإنسانية، كما تستقبل النصوص الأدبية، على أن يكون ذلك ضمن معايير تم رسمها لتظل في المستوى الذي يسمو بها في عالَم الثقافة.

والمجلة لا تضع الحواجز والحجُب أمام هواة الكتابة والأدب، الراغبين بنشر مشاركاتهم المتواضعة؛ فلو لم يجدوا مَن ينشر لهم، لَتَوقَّفوا عن المضي في درب القلم، ولَانْقطعَ سبيلُهم نحو تطوير مهاراتهم وصقل مواهبهم ثم الوصول إلى مصافّ المحترفين.

وأهمّ ما تشترطه المجلة في النشر:

- ألا تكون المشاركة قد أخذَت سبيلها في نشرٍ مُماثِل مِن قبل.
- وأن تكون المشاركة متصفة بالجدّية، والمعالجة الهادفة.
- وتنأى عن الاتّصاف بالعَبثية.
- وتتنزّه عن الاسْتلاب.
- ولا تعتدي على الحرّيات.
- ولا تثير النعرات الطائفية والقضايا السياسية والغرائز الجنسية وسائر طبائع السوء.

فالعلم يعني البحث، والبحث أخلاق..

والأدب يعني الجمال، والجمال ذوق..

والعلم أيضًا فكرٌ، والفكر رفعة..

والأدب أيضًا شعور، والشعور ارتقاء..

فما تَحققَ فيه (الخُلُقُ الحسن) و(الذوقُ الجميل)، كان حقَّه (الارتقاءُ) و(الرفعة).

محتويات العدد





افتتاحية العدد

بحمد الله وفضله يصدر هذا العدد ليتمم مسيرة أربعة فصول، وهي بتمامها تشكّل أعداد السنة الأولى التي تبتدئ بفصل الخريف وتنتهي بفصل الصيف، على نحو التقويم السرياني الذي كان يسير عليه أجدادنا البابليون على هذه الأرض المباركة (أرض العراق).

وما زالت مسيرة مجلتنا هذه تحرص على أن تأتيكم بالجديد والممتع والمفيد من النصوص والمقالات والدراسات، وتصحبكم معها لمرافقة أقلام رصينة الطرح، رشيقة الأسلوب.

وقد امتاز هذا العدد بنشر عدة نصوص تراثية عربية بتحقيق ثلة من الباحثين، آملين أن تشكّل إثراءً للساحة العلمية المَعنية بتراث الأمة العربية.

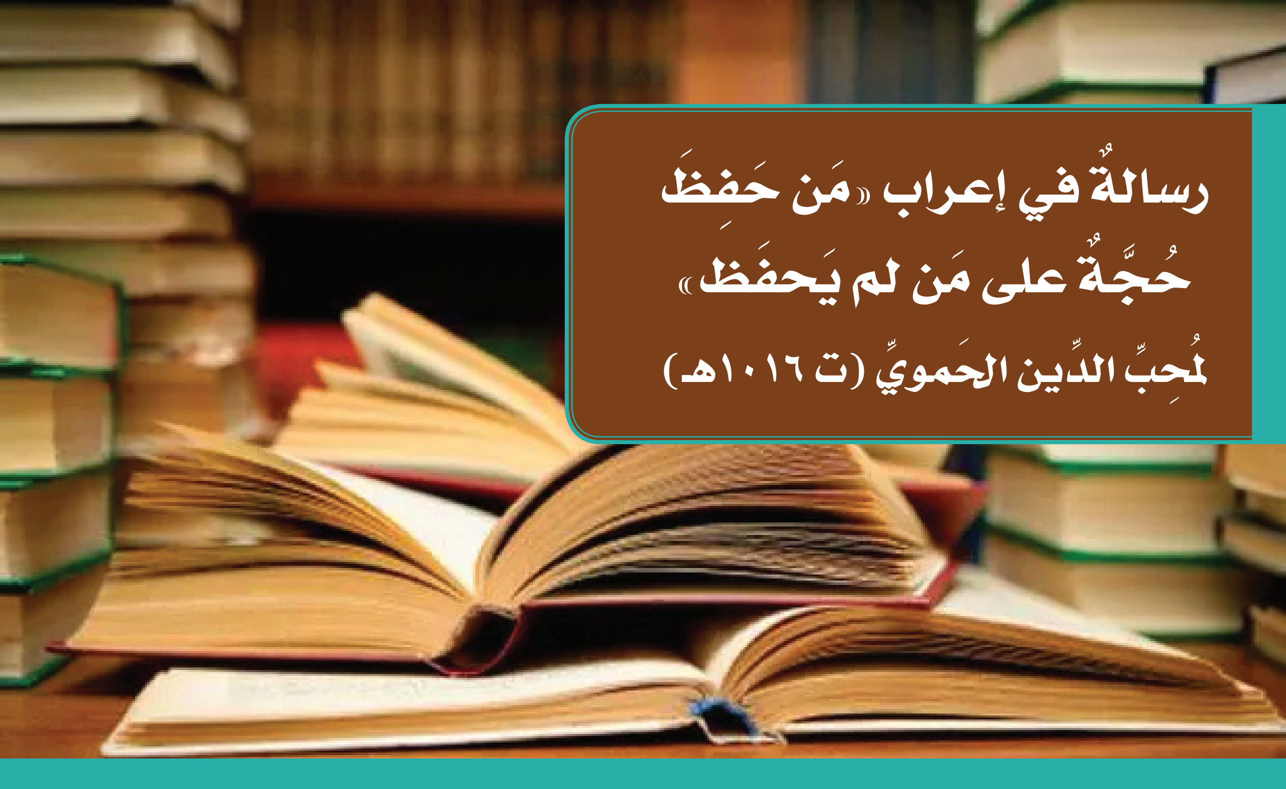
كما امتاز العدد بنشر مقالة مترجمة عن الإنجليزية، وهو أمر جديد في مسيرة المجلة، نرجو أن يفتح بابًا أوسع لمثل هذا الحقل الخطير الأهمية.

ولقد صادفَنا -ونحن في طور الإعداد والتحرير- نبأ وفاة شيخ المؤرخين العراقيين العلامة الأستاذ الدكتور عماد عبد السلام رؤوف، رحمه الله تعالى، فآثرنا أن نؤجّل بعض المشاركات إلى أعداد قادمة من أجل إتاحة المجال في هذا العدد لمجموعة مشاركات على سبيل التأبين لأستاذنا الراحل، وهي عبارة عن مقالات لبعض أهل بيته الكرام وأصحابه الفضلاء ومحبيه النجباء.

سائلين الله أن يتغمد فقيدنا بالرحمة والغفران والرضوان، ويلهم أهله ومحبيه الصبر والسلوان، ويعوض الأمة العربية في مصابها خيرًا، وأن يرحم سائر الأعلام الذين أناروا الشُّعَل في حالك الدهر الذي نعيشه، وظلّوا ثابتين على الحق قولًا وعملًا.

رئيس التحرير

القسم الأول: الدراسات



رسالةٌ في إعراب «مَن حَفِظَ حُجَّةٌ على مَن لم يَحفَظ» لمِحبِّ الدِّين الحَمويِّ (ت ١٠١٦هـ)

دراسة وتجميع: صفاء صابر البياتي

المقدِّمة:

كثيرةٌ هي الرَّسائلُ الصَّغيرة المفقودة، التي توارَتْ في المجموعاتِ المحفوظة، أو طُوِيَت بين المطوَّلاتِ المطبوعة، غابَ ذكرها عن أهل التَّراجِم، وغفلَ عنها المفهرسونَ، فلم تُدوَّن في قوائم فهارسهم، ومِن هذه الرَّسائلِ رسالتُنا هذه التي يمكننا عدُّها من المفقوداتِ؛ إذ لم نجد لها ذكرًا في آثار الحمويّ المطبوعة أو المخطوطة. وحفِظها حفيدُ ابنه المحبِّي (ت ١١١١هـ) بذكره لها مختصَرَةً، في أثناء ترجمِته المطوَّلة للحمويّ في كتابه «خُلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر»، فارتأينا أن نُخرجها بحُلَّة قَشيبةٍ؛ خدمةً للتُّراث العربيّ بعامةٍ، وللتُّراثِ الحمويِّ بخاصَّةٍ. فجعلتُها في قسمين: أوَّلهما للدِّراسة عن حياة المؤلِّف الشَّخصيَّة والعلميَّة، وعن الرِّسالة توثيقًا وتوصيفًا، والآخَرُ للتَّجميع، ثم ثبتٌ بالمصادر والمراجع المعتمَدَة. واللهُ الموفِّق.

القسم الأول: الدِّراسة

المبحث الأوَّل: المؤلِّف

المطلب الأوَّل: حياته الشَّخصيَّة

أوَّلًا: هُويَّتُه

١- اسمه: هو محمَّد بن أبي بكرٍ بن داود بن عبد الرَّحمن بن عبد الخالق بن عبد الرَّحمن.

٢- كُنيتُه: أبو الفَضل.

٣- لقبُه: مُحبُّ الدِّين بن تقيّ الدِّين.

٤- نِسبتُه: العَلْوانيّ، الحمويّ، الدِّمشقيّ، الحنفيّ[1].

ثانيًا: مولده:

وِلِدَ بحماةَ في الخامسَ عشرَ من شَهر رمضانَ سنة (٩٤٩هـ)، الموافق للرَّابع والعشرينَ من شهر كانون الأول سنة (١٥٤٢م)[2].

ثالثًا: نشأته

نشأ بمولدِه حماةَ، وقرأ على والدِه إلى أن تَنَبَّلَ، ثم بعثَ به والدُه لكِبَرِ سنِّه وعجزه عن الإقراء إلى الشَّيخ العارف بالله أبي الوفاء، فلزِمهُ وتفقَّه عليه على المذهب الشَّافعيّ، حتى وصل إلى قراءة شَرح البهجة، ثمَّ تحوَّل حنفيًّا، ثم رحل بعد وفاة شُيوخه إلى حلب، وأخذ عن علمائها، ثم دخل الآستانة واختلط مع كبرائها، ومدحهم بالقصائد الفائقة، ووجهت إليه مدرسة القصاعيَّة بالشَّام فوَرَدَ إليها، ثمَّ تدبَّرَ دمشقَ، وصاهر العلَّامةَ أبا الفداء إسماعيل النَّابلسيّ على بنتين، ماتتْ إحداهما قبل أن يبتنيَ بها، وولدتْ له الأخرى مُحبَّ الله، جدُّ صاحبِ «خلاصة الأثر»، ثم سافرَ مع قاضي القُضاة محمد بن محمَّد بن إلياس الشَّهير بـ «جوي زاده» إلى القُدس في مهمَّته التَّفتيشيَّة على الكنيسة التي جدَّدَ

---

(١) انظر: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر: محمد أمين بن فضل الله بن محبّ الدِّين بن محمد المحبي الحموي الدمشقي (ت١١١١هـ)، دار صادر، بيروت: ٣/ ٣٢٢.

(٢) انظر: ريحانة الألبَّا وزهرة الحياة الدُّنيا: شهاب الدين الخفاجي (ت١٠٦٩هـ)، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر، ط١، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٧م: ١٩٤، وخلاصة الأثر: ٣/ ٣٢٢، وعَرف البشَام فيمن وليَ فتوى دمشق الشَّام: محمَّد خليل بن علي بن محمَّد المرادي الدِّمشقيّ (ت١٢٠٦هـ)، تحقيق: محمَّد مطيع الحافظ، ورياض عبد الحميد مراد، دار ابن كثير، دمشق-بيروت، ط٢، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م: ٦٣.

النَّصارى شيئًا من بنائها، ثم سافر معه إلى مصرَ حينما أُعطيَ قضاءَها، فأقام فيها مدَّةً والتقى فيها بالعُلماءِ وأخذَ عنهم، وتولَّى ثمَّة قضاءَ فوَّة، والقنا، والقصير[١].

ثم قفل عائدًا إلى الشَّام، فعمل بالقضاء والفتوى، وتولَّى منصب القضاء في حمص، وحصن الأكراد، ومعرَّة النُّعمان، ومعرَّة نسرين، وكلّس، وإعزاز، والقُدْمُوس وغيرها[٢].

واستقرَّ في نهاية المطاف بدمشقَ سنة (٩٩٣هـ)، مُلقيًا بها عصا تسياره، فتولَّى فيها القضاء نيابةً بالمحكمة الكبرى عدَّة سنواتٍ، فضلًا عن تولِّيه قضاء العسكر، وقضاء الرَّكب الشَّامي فيها، ولم يزل يُفتِي ويُفيد، ويُتيحُ الفوائدَ لكلِّ طالبٍ ومستفيد، حتى وافاه الرَّدى، والتحفَ بالرَّغام واتَّخذهُ رِدا، وفرغتْ من سُلاف الحياة طاسُه، وقُطِعَ بمقراضِ البينِ قِرطاسُه[٣].

(١) انظر: لُطف السَّمر وقطف الثَّمر من تراجم أعيان الطَّبقة الأولى من القرن الحادي عشر: نجم الدِّين محمَّد بن محمَّد الغزِّي الدِّمشقيّ (١٠٦١هـ)، تحقيق: محمود الشِّيخ، وزارة الثَّقافة والإرشاد القومي، دمشق:١/ ١١٤، وخلاصة الأثر:٣/ ٣٢٧.

(٢) انظر: خلاصة الأثر:٣/ ٣٢٣ وما بعدها.

(٣) انظر: عَرف البشَام:٦٣.

رابعًا: وفاته

تُوفِّي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في يوم الأحد الثَّالث والعشرين من شهر شوَّال سنة (١٠١٦هـ) الموافق للعاشر من شهر شباط سنة (١٦٠٨م)، ودُفِنَ في المدفن قُبالةَ الجانب المحاذي لجامع جرَّاح خارج باب الشَّاغور في دمشقَ[٤].

المطلب الثَّاني: حياته العلميَّة

أوَّلًا: شيوخه

قرأ الحمويُّ على كِبار عُلماء عصره، من أبرزهم:

- السَّيِّد الشَّريف تقيّ الدِّين بن أحمد بن أبي البقاء الحموي (ت في حدود ٩٦٠هـ)[٥].
- الإمام أبو نصر الطَّبلاوي (ت٩٦٦هـ)[٦].
- رضي الدِّين محمد الحنبليّ (ت٩٧١هـ)[٧].

(٤) انظر: ريحانة الألبَّا: ١٩٤، وخلاصة الأثر:٣/ ٣٢٧، وعَرف البشَام:٦٣.

(٥) انظر ترجمته في: خلاصة الأثر:٣/ ٣٢٢.

(٦) انظر ترجمته في: الكواكب السَّائرة بأعيان المائة العاشرة: نجم الدين الغزِّي (ت١٠٦١هـ)، تحقيق: خليل المنصور، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م:٢/ ٣٣.

(٧) انظر ترجمته في: الكواكب السَّائرة:٣/ ٤٢.

- المسند الحافظ نجم الدِّين الغَيطي (ت٩٨٤هـ)[١].
- الحافظ جمال الدِّين يوسف بن القاضي زكريَّا الأنصاريّ (ت٩٨٧هـ)[٢].
- شهاب الدِّين أحمد الأطاسي (ت١٠٠٤هـ)[٣].
- بدر الدِّين الغزِّي العامري (ت١٠٠٦هـ)[٤].

فضلًا عن مصاحبته لبدر الدِّين القرافي المالكي (ت١٠٠٨هـ)[٥]، وشمس الدِّين محمَّد الفارضي (ت٩٨١هـ)[٦]، ومصاهرته لأبي الفداء إسماعيل بن أحمد النَّابلسيّ الدِّمشقيّ (ت٩٩٣هـ)[٧].

(١) انظر ترجمته في: الكواكب السَّائرة:٣/ ٥١.

(٢) انظر ترجمته في: الكواكب السَّائرة:٣/ ٢٢١.

(٣) انظر ترجمته في: خلاصة الأثر:١/ ١٨٤.

(٤) انظر ترجمته في: خلاصة الأثر:٤/ ١٨٩.

(٥) انظر ترجمته في: معجم المؤلِّفين تراجم مصنِّفي الكتب العربيَّة: عمر رضا كحالة (ت١٤٠٨هـ)، مكتبة المثنى- دار إحياء التُّراث العربي، بيروت:١١/ ١٥٠.

(٦) انظر ترجمته في: الكواكب السَّائرة:٣/ ٨٣.

(٧) انظر ترجمته في: معجم المؤلِّفين:٢/ ٢٥٨.

ثانيًا: تلاميذه

قرأ على الحمويّ كثيرٌ من طلبة العِلم، منهم:

- مُحَمَّد بن حُسَيْن الملقَّب شمس الدِّين الحمامي الدمشقي العاتكي الحنفي (ت١٠١٨هـ)[٨].
- مُحَمَّد بن مُحَمَّد شمس الدّين بن الجوخي الشافعي (ت١٠٢٢هـ)[٩].
- مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن يُوسُف بن أَحْمد بن مُحَمَّد الملَّقب شمس الدّين الحموي الدمشقي الميداني الشافعي (ت١٠٣٣هـ)[١٠].
- أَحْمد بن مُحَمَّد بن أَحْمد بن إدريس، شهَاب الدّين الْحلَبِي الْمَعْرُوف بِابْن قولاقسز (ت١٠٣٧هـ)[١١].
- مُحَمَّد بن نعْمَان بن مُحَمَّد بن مُحَمَّد الشَّهير بالإيجي الدِّمشقي الشَّافعي (ت١٠٣٩هـ)[١٢].

(٨) انظر ترجمته في: خلاصة الأثر:٣/ ٤٣٩.

(٩) انظر ترجمته في: خلاصة الأثر:٤/ ١٦٥.

(١٠) انظر ترجمته في: الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرِّجال والنِّساء من العرب والمستعربين والمستشرقين): خيرالدين الزِّركْلِي (ت١٩٧٦م)، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٥، ٢٠٠٢م:٧/ ٦٢.

(١١) انظر ترجمته في: خلاصة الأثر:١/ ٣٠١.

(١٢) انظر ترجمته في: خلاصة الأثر:٤/ ٢٤٨.



- عبد اللَّطِيف بن حسن الجالقي المَعْرُوف بالقزديري الدمشقيّ الحنفيّ (ت١٠٤٣هـ)[١].
- عبد الرَّحْمَن بن مُحَمَّد عماد الدّين بن مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن عماد الدّين الْعِمَادِيّ الحني الدِّمَشْقِي (ت١٠٥١هـ)[٢].
- محمَّد بن محمَّد بن محمَّد الغَزِّي العامري القرشي الدمشقيّ، أبو المكارم، نجم الدِّين (ت١٠٦١هـ)[٣].
- أَيُّوب بن أَحْمد بن أَيُّوب الْأُسْتَاذ الْكَبِير الْحَنَفِيّ الخلوتي الصَّالِحِي (ت١٠٧١هـ)[٤].

ثالثًا: آثاره

ترك محبُّ الدِّين مجموعة من الآثار العلميَّة، منها:

- تنزيل الآيات على الشَّواهد من الأبيات، شرح شواهد الكشَّاف.
- حواشٍ على تفسير البيضاوي.
- منظومة عمد الحكام ومرجع القضاة في الأحكام.
- شرح منظومة محب الدِّين بن الشحنة في المعاني.
- حواشٍ على الهداية في الدُّرر والغُرر في الفقه.
- حادي الأظعان النَّجديَّة إلى الدِّيار المصريَّة.
- الرَّدُّ على مَن فجر ونبح النَّجم بإلقامه الحجر.
- السَّهم المعترض في قلب المعترض.
- الصّمصامة المتصدية لردِّ الطَّاغية المتعدية.
- نُزهة النُّفوس والألباب ومراسلة المحبّ للأحباب.
- شرح منظومة عمدة الأحكام.
- بوادي الدُّموع العندميَّة بوادي الدِّيار الرُّوميَّة.
- الدُّرَّة المضيَّة في الرِّحلة المصريَّة.
- الرِّحلة التَّبريزيَّة[٥].

(١) انظر ترجمته في: خلاصة الأثر:٣/ ١٦.

(٢) انظر ترجمته في: خلاصة الأثر:٢/ ٣٨٠.

(٣) انظر ترجمته في: الأعلام:٧/ ٦٣.

(٤) انظر ترجمته في: خلاصة الأثر:١/ ٤٢٨.

(٥) انظر: لُطف السمر:١/ ١٢١-١٢٣، ريحانة الألبَّا:١٩٤، وخلاصة الأثر:٣/ ٣٢٧، وعَرف البشَام:٦٣، وهدية العارفين: إسماعيل باشا

رابعًا: منزلته

قال عنه الخفاجيّ: «نزيل الشَّام، وشَامةُ مَن بها من الوجوه والأعـلام، ذو كمالٍ وأدب، ومجدٍ تَناولَه عن كَثَب، فكان غَرَّة مَن نظَم ونثَر، وكتَب وشعَر، إذا حلَّ بنَادٍ تهلَّل صَدرُه وانْشَرح، وتزيَّنَتْ بدُرَرِ كلماتِه عُقودُ المُلَح، وترنَّمتْ أطيارُها، وتفتَّحت بنسيم خُلُقِه أنْوارُها، بمُحاورات له تحْمَرُّ خدودُ الكاساتِ منها خَجَلا، وتفْتح أزهارُ الخمائلِ لها آذانًا ومُقَلًا»[١]. وقالَ عنه نجمُ الدِّين الغَزِّيّ بأنَّه: «الشّيخُ الإمامُ العلَّامةُ، البارعُ الكاملُ، النَّاقدُ الأوحدُ الفهَّامةُ»[٢]. ونعتَهُ حفيدُه بقوله: «كانّ علَّامةً مُحقِّقًا مُدقِّقًا، غوَّاصًا على المسائل، طويل الباع في المنقول، قويّ السَّاعد في المعقول، مستحضرًا لمسائل الفقه، حافظًا لعبارات المتون، مواظبًا على التَّدريس والإفتاء... واشتهرتْ فتاويه بالآفاقِ، وكان ممَّن توحَّد في عصرِهِ بمعرفة الفنون، خصوصًا التَّفسير والفقه والنَّحو والمعاني والفرائض والحساب والمنطق، وكانت له شُهرةٌ طنَّانةٌ، وذكره جماعةٌ من المؤرِّخين والأُدباء وأثنوا عليه كثيرًا»[٣].

ووصفه المرادي الدِّمشقيّ ببحر الفضل الزَّاخر، الثَّجَّاج بأمواجه، والطَّود الشَّامخ الباذخ الرَّاسب الرَّاسي، أجلّ مَن تضلَّع من العلوم ولها خدَم، وتطلَّع إلى مسائلها وحقَّق فيها وأرسخ قدم، ازدانت به دمشق الشَّام، كما يزدان السَّاعدُ بالسُّوار والوِشام، فابتهجت بمعلوماته مدارسُها وجوامعها، وهشَّت له وجوهها، وأصغتْ لمقوله مسامعها[٤].

ومِن أجود شِعرهِ قوله: [الطَّويل]

حَكَتْ قامَتي لامًا وقامةُ مُنيَتي
حكَتْ ألفًا للوصلِ، قُلتُ مسائلا
إذا اجتمعتْ لامي مع الألف التي
حكَتْك قوامًا ما تصيرُ فقال لا[٥]

البغدادي (ت ١٣٣٩هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣١٢هـ:٢/ ٢٦٧، وإيضاح المكنون في الذَّيل على كشف الظُّنون عن أسامي الكتب والفنون: إسماعيل باشا البغدادي (ت ١٣٣٩هـ)، طهران، ط٣، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م:١/ ٥٥٦، و٢/ ٣٢، ١٢١، والأعلام:٦/ ٥٩.

(١) ريحانة الألبَّا:١٩٤.

(٢) لُطف السَّمر:١/ ١١٤.

(٣) خلاصة الأثر:٣/ ٣٢٢.

(٤) انظر: عَرف البشَام:٥٨.

(٥) انظر: خلاصة الأثر:٣/ ٣٢٧.



المبحث الثَّاني: الرِّسالة

المطلب الأول: توثيقها

أولًا: توثيق عنوانها:

لم يرد لهذه الرسالةِ ذكرٌ في المصادر التي ترجمتْ للحمويّ، فضلًا عن ذكر عُنوانها، ولم تُشِرْ هذه المصادرُ إليها، عدا تلك الإشارة التي أوردها للحمويِّ حفيدُ ابنه المحبِّي[1]، والتي حفِظت لنا هذه الرِّسالة، فقال: «وَله تَحْرِيرٌ على الْمثل الْمَشْهُور وَهُوَ مَن حفِظ حجَّةٌ على من لم يحفظ»[2].

فلعلَّ ما ارتضيناه عُنوانًا لها لخيرُ عُنوانٍ مُعبِّرٍ عن فحوى الرِّسالة وموضوعها الأساس، ومَن يدري! لعلَّه العُنوان نفسه الذي وضعهُ لها المؤلِّفَ، أو ما هو قريبٌ منه. والله أعلم.

ثانيًا: توثيق نسبتها

نصَّ المحبيُّ على نسبةِ هذه الرِّسالة إلى الحمويّ في ترجمته المطوَّلة له، بقوله: «وَله تَحْرِيرٌ على الْمثل الْمَشْهُور وَهُوَ مَن حفِظ حجَّةٌ على من لم يحفظ»[3]. فضلًا عن أنَّنا لا نعلمُ أحدًا نُسبتْ إليه رسالةٌ بهذا العُنوان، أو تنازعَ والحمويَّ في نِسبةِ هذه الرِّسالة.

فدلَّ هذا النَّصُّ على أنَّ محبَّ الدِّين الحمويُّ هو صاحبُ هذه الرِّسالة بلا ريبٍ.

ثالثًا: توثيق فقدانها:

لم نجد لهذه الرِّسالة أثرًا في مجموعات الحمويِّ التي تحتفظ بها المكتبات، كمكتبة تشستربيتي (٤٨١٧)، ولم ترد عَرَضًا في آثار رَحلاته التي وقفنا عليها في المكتبة الظاهريَّة تحت الرَّقم (٦٩٨٥)، أو مكتبة راغب باشا تحت الرقم الحميديّ (١٤٧٥/ ١)، أو مكتبة عاطف أفندي (٢٠٣٠)، ولم يظهر لها صدًى في فهارس المخطوطات التي اطَّلعنا عليها، فترجَّح لدينا أنَّها مفقودةٌ مع ما فُقِدَ من التَّراث العربيّ.

المطلب الثَّاني: توصيفها

أوَّلًا: موضوعها

يُعدُّ موضوعُ هذه الرِّسالةِ مِن الموضوعاتِ النَّحويَّة، ذكر المحبِّي ملَخَّصها المفيد، فقال: «وَلِهَذَا الْكَلَام تَتِمَّة أَعرَضت عَنْهَا لعدم تعلقهَا بالغرض»[4]،

(١) انظر: خلاصة الأثر: ٣/ ٣٠٨ وما بعدها.

(٢) خلاصة الأثر: ٣/ ٣٢٨-٣٢٩.

(٣) خلاصة الأثر: ٣/ ٣٢٨-٣٢٩.

(٤) خلاصة الأثر: ٣/ ٣٢٩.

ومُبيِّنًا سببَ تأليف الحمويّ لها قائلًا: «وَكَانَ سَبَب تحريره لَهُ أَنه اجْتمع هُوَ وَجَمَاعَة فِي مجْلِس بعض الأعيان فدار الْكَلَام بَينهم فِيهِ من جِهَة الاعراب فَاخْتَار بَعضهم رفع الْحجَّة وَبَعْضهمْ نصبها فَكتب مَا مُلخَّصهُ...»[1]. جاء تأليف هذه الرِّسالة لحسم النِّزاع الدائر في لفظة «حُجة» من هذا القول السَّائر.

ثانيًا: أهميَّتُها

تتجلَّى أهميةُ هذه الرِّسالةِ في عدَّة أمورٍ، منها:

١- إضافة أثرٍ جديدٍ غفلتْ عنه كتبُ التَّراجِم والطَّبقات؛ إلى آثار محب الدِّين الحمويّ.

٢- تصوِّر ما كان يُدار في مجالس العلماء والأعيان من الحوارات العلميَّة والنقاشات المعرفيَّة، والاستضاءة بحركة التَّأليف في القرن الحادي الهجري، وتصوير الموضوعات التي عُني بها في هذه الحقبة، ومعرفة المنهج الذي ساروا عليه في التَّأليف.

٣- شيوع هذا القول، وكونه قاعدةً من قواعد الاستدلال لدى أهل العِلم وطُلَّابه.

٤- عدّها مظهرًا من مظاهر العناية بالتُّراث اللُّغويّ، أيًّا كان حجمُه ومقدارُه.

ثالثًا: منهجها

ظهر لنا من خلال الملخَّص المحفوظ أنَّ منهجَ الحمويّ في رسالتِه هذهِ موجِزٌ ومختصِرٌ، إذ شرع يُعربُ ألفاظَهُ لفظًا لفظًا حتى ينتهيَ منه، ثم أخذ يُوردُ ما قد يُثارُ في ذِهنِ المتلقِّي من إشكالاتٍ، ثم يُجيبُ عنه، بقوله: «فإن قلتَ:... قلتُ:...»، بأُسلوبٍ سَلِسٍ واضحٍ لا غموضَ فيه، لينتهيَ إلى تقرير الوجهِ الصَّحيح في إعرابِ «حُجَّة».

رابعًا: مصادرها

لم يُفصِح الحمويُّ في رسالته عن مصادره التي ركَنَ إليها؛ ولا غروَ في ذلك فطبيعة الموضوع لم تقتضِ ذلك؛ لإيجازها ووضوحها، فاعتمد على محفوظاتِه المتأتية له من القراءة على الشُّيوخ، والخبرة والمدارسة من العُلوم والمعارف، ولم يُورد إلا شاهدًا واحدًا، وهو بيتٌ للطُّغرائي.

(١) خلاصة الأثر: ٣/ ٣٢٩.



القسم الثَّاني: التَّجميع

منهجُ التَّجميع:

اعتمدتُ في إعادة بناء هذه الرِّسالة على النَّص الفريد الملخَّص الذي حفِظَه لنا حفيدُ ابنه المحبِّي في ترجمته التي عقدها له، في الصَّفحة (٣٢٩) من كتابه «خلاصة الأثر» المطبوعة طبعة قديمة من غير تحقيق.

ويتلخَّصُ منهجي في تجميع هذه الرِّسالة في الأُمور الآتية:

١- تحريرُ النَّصِّ مِن النُّسخةِ الفريدةِ المعتمَدةِ على وَفق قواعد الإملاء الحديثة، وعلاماتِ التَّرقيم المعاصرة، دونَ الإشارةِ إلى ما قد جرى تغييرُه من الرُّسوم القديمة.

٢- الحِرصُ على سلامةِ النَّصِّ، بالضَّبط التَّامِّ لألفاظه.

٣- التخريجُ والتَّعريف بما يحتاج إليهما، وتوثيقُ النُّصوصِ والنُّقولاتِ، وعَزوها إلى مَصادرها الأصيلة.

٤- حصر الألفاظ المعرَبة بين الهلالين ( )، وحصر ما أضفتهُ حيث اقتضت الإضافة بين المعقوفين [ ].

النَّص المجمَّع:

[رسالةٌ في إعراب: مَن حَفِظَ حُجَّةٌ على مَن لم يَحفَظ]

(من): اسْمُ مَوْصُولٍ مَرْفُوعُ المحِلِّ على الِابْتِدَاء، وَجُمْلَة (حفظ): صلَة لَا مَحل لَهَا من الإعراب، والعائدُ الضَّمِيرُ الْمُسْتَترُ في (حفظ).

و (حُجَّةٌ): خبرُ الـمُبْتَدَأ، أعني: الْمَوْصُول، وَهُوَ (مَن).

و (عَلى) ظرفٌ لغوٌ؛ لأنَّ عَاملَه مِن الأفعالِ الخَاصَّةِ الَّتِي لَا يتَضَمَّن الظَّرْفُ لَهُ، لَا مَحل لَهُ مِن الإعراب وَهُوَ مُتَعَلقٌ بـ (حُجَّة).

و (عَلى): حرفُ جرٍّ مَعْنَاهُ الاستعلاء، وَهُوَ هُنَا مَعنويٌّ.

وَ (لم): حرفُ نفيٍ وَجزمٍ. و(يحفَظ): فعلٌ مضارعٌ مجزومٌ بـ (لم). وَجُمْلَة (لم يحفَظ): صِلَة (مَن) الثَّانِيَة المجرورة المحلِّ بـ (على)، وعائدها الضَّمِير الْمُسْتَتر في (يحفظ)، وَجُمْلَة (مَن حفِظ حُجَّةٌ على مَن لم يحفَظ) استئنافيَّةٌ.

فإن قلتَ: هَل يَصحُّ نصبُ الْحجَّةِ على أَنَّهُ مفعولُ (حفِظ)، وَجعلُ (على) فعلًا مَاضِيًا

والموصولَ بعده مَفْعُولَه مَنْصُوبًا بِنَزْع الْخَافِض على الْحَذف والإيصال وَالتَّقْدِير: مَن حفِظ حُجَّةٌ علا على مَن لم يحفظ، ثمَّ حُذِفَتْ (على) وباشَرَ الْفِعْلُ الْمَنْصُوب فنصبَه على حدِّ قَولِ الطُّغرائيّ[١]:

وإنْ عَلاني مَن دُوني فَلَا عَجَبٌ
لي أُسْوَةٌ بانحطاطِ الشَّمْسِ عَن زُحَلِ[٢]

قلتُ: التَّقْدِير لَا يروجُ عِنْد النَّاقدين الَّا للضَّرُورَة، وَلَا ضَرُورَة هُنَا على أَنَّ رسمَ الْخطِّ لَا يساعدُه أَيْضًا، فَإنهُ لَو كَانَ فعلًا مَاضِيًا لكُتِبَ بالألف الْمَوْجُود بِصُورَة الْيَاء.

فإنْ قلتَ: يُمكن أَن يرجَّح نصب الْحجَّة بِأَنَّهُ يلْزم من عَدمه بَقَاء (حفظ) بِلَا مفعولٍ على أَنَّهُ مِن الْأَفْعَال المتعديةِ.

قلتُ: مثلُ هَذَا غير عَزِيز فِي كَلَامهم فإنَّهُ قد تقرَّر فِي فنِّ الْمعَانِي أَنَّهُ قد يكون الْغَرَضُ مِن الْفِعْل المتعدي إثباته لفَاعِله أَو نَفْيه عَنهُ مُطلقًا من غير اعْتِبَار تعلُّقه بِمن وَقع عَلَيْهِ، فينزل مَنزلَة اللَّازِم.

فإنْ قلتَ: فَمَا ذكرته مُرَجِّحٌ لرفعِ الْحجَّة، وَحِينَئِذٍ فَكيفَ يَصحُّ حملهَا على الْمَوْصُول الذي هُوَ عبارَة عَن الشَّخْص؟

قلتُ: هُوَ من بَاب الْمجَاز الْمُرْسل[٣] من قَبيل إطلاق الْحَالِ وارادة الْمحِلِّ، أَو إطلاق الْمُسَبّبِ وإرادة السَّبَب، وَأَمْثَاله أَكْثرُ مِن أَن تُحصى.

(١) هو الحسين بن علي بن محمد بن عبد الصمد، أبو إسماعيل، مؤيد الدين، الأصبهاني الطغرائي: شاعرٌ، من الوزراء الكتّاب، كان يُنعت بالأستاذ. ولد بأصبهان سنة (٤٥٥هـ)، واتصل بالسُّلطان مسعود بن محمد السلجوقي (صاحب الموصل) فولّاه وزارته، ثم اقتتل السلطان مسعود وأخ له اسمه السلطان محمود فظفر محمود وقبض على رجال مسعود، وفي جملتهم الطغرائي، فأراد قتله ثم خاف عاقبة النقمة عليه، لما كان الطغرائي مشهورًا به من العلم والفضل، فأوعز إلى مَن أشاع اتِّهامه بالإلحاد والزندقة فتناقل النَّاس ذلك، فاتخذه السُّلطان محمود حجة، فقتله. ونسبة الطغرائي إلى كتابة الطغراء. له (ديوان شعر – ط) وأشهر شعره (لامية العجم)، وله كتبٌ منها (الإرشاد للأولاد– خ) مختصر في الإكسير، وللمؤرخين ثناءٌ عليه كثيرٌ (ت٥١٣هـ). انظر: الأعلام:٢/ ٢٤٦.

(٢) البيت من البحر البسيط، ومعناه: وإن علاني هؤلاء الذين ذممتُ دولتَهم وأيامَهم وهم دوني في كلِّ شيءٍ، فإنَّ لي أُسوةً بكون الشَّمس التي هي في الفلك الرَّابع منحطَّةً عن الزُّحل الذي هو في الفلك السَّابع. انظر: الطُّغرائي حياته شعره لاميّته، بحثٌ وتحقيقٌ وتحليلٌ: علي جواد الطّاهر، دار التَّضامن، بغداد، ط١، ١٩٦٣م: ٩٢.

(٣) كلمةٌ اسْتُعْمِلَتْ في غَيْرِ مَعناها الْأَصْليِّ لعلاقةٍ غير المشابهةِ مَعَ قرينةٍ مانعةٍ من إرادةِ المعنَى الأَصْليِّ. انظر: البلاغةُ الواضِحَةُ: علي الجارم و مصطفى أمين، دار المعارف، ١٩٩٩م: ١١٠.



ثبت المصادر والمراجع:

- الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرِّجال والنِّساء من العرب والمستعربين والمستشرقين): خير الدين الزِّرِكْلِي (ت١٩٧٦م)، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٥، ٢٠٠٢م.
- إيضاح المكنون في الذَّيل على كشف الظُّنون عن أسامي الكتب والفنون: إسماعيل باشا البغدادي (ت ١٣٣٩هـ)، طهران، ط٣، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.
- البلاغةُ الواضِحَةُ: علي الجارم و مصطفى أمين، دار المعارف، ١٩٩٩م.
- خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر: محمد أمين بن فضل الله بن محبّ الدِّين بن محمد المحبي الحموي الدمشقي (ت١١١١هـ)، دار صادر، بيروت.
- ريحانة الألبَّا وزهرة الحياة الدُّنيا: شهاب الدين الخفاجي (ت١٠٦٩هـ)، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر، ط١، ١٣٨٦هـ / ١٩٦٧م.
- الطُّغرائي حياته شعره لاميَّته، بحثٌ وتحقيقٌ وتحليلٌ: علي جواد الطَّاهر، دار التَّضامن، بغداد، ط١، ١٩٦٣م.
- عَرف البشَام فيمن وليَ فتوى دمشق الشَّام: محمَّد خليل بن علي بن محمَّد المرادي الدِّمشقيّ (ت١٢٠٦هـ)، تحقيق: محمَّد مطيع الحافظ، ورياض عبد الحميد مراد، دار ابن كثير، دمشق-بيروت، ط٢، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- الكواكب السَّائرة بأعيان المائة العاشرة: نجم الدين الغزِّي (ت١٠٦١هـ)، تحقيق: خليل المنصور، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.
- لُطف السَّمر وقطف الثَّمر من تراجم أعيان الطَّبقة الأولى من القرن الحادي عشر: نجم الدِّين محمَّد بن محمَّد الغزِّي الدِّمشقيّ (١٠٦١هـ)، تحقيق: محمود الشِّيخ، وزارة الثَّقافة والإرشاد القومي، دمشق.
- معجم المؤلِّفين تراجم مصنِّفي الكتب العربيَّة: عمر رضا كحالة (ت١٤٠٨هـ)، مكتبة المثنى- دار إحياء التُّراث العربي، بيروت.
- هدية العارفين: إسماعيل باشا البغدادي (ت ١٣٣٩هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣١٢هـ.



رسالة في تصحيح تركيب «أكثر من أن يُحصى» لطاش كبرى زاده (ت ٩٧٨هـ)

تحقيق: سارة خالد الرحاحلة

مقدمة:

عُنيت هذه الرسالة بِحَلِّ تركيبٍ من التراكيب التي كَثُر تداولها وشاع استخدامها، وكانت مَوضع إشكالٍ، صَعُب حلُّها على كثير من حذّاق اللغة وفضلاء أهلها، لا سيّما تركيب «أكثرَ مِنْ أنْ يُحصى»، وهذا هو الهدف الرئيس الذي من أجله كُتبت الرسالة.

وقد عالجَها المؤلف باستخدام أسلوب التضمن في مقدمة رسالته، مع ذكره لتراكيب أخرى، كما استخدم أسلوب التمثّل بالشعر، فقد استحضر بيتًا للخوارزمي، يشبه تلك التراكيب التي ذكرَها، وقد ابتعد في رسالته عن الألفاظ الحوشية، والتزم فيها الطريقة العلمية.

ومما تمتاز به هذه الرسالة أنّ المؤلف ذكَر فيها المسالك التي سلكها العلماء في تفسيرهم لمثل هذه التراكيب.

المؤلف:

مؤلّف هذه الرسالة هو أحمد بن مصطفى بن خليل المعروف بـ (طاش كبرى زاده)، من مشاهير الموسوعيين الأتراك وكُتّاب السِّيَر، ولد في بروسة سنة (٩٠١هـ)، ونشأ في أنقرة، وتأدب وتفقّه، ووَلِيَ القضاء بالقسطنطينية.

يُعدّ من المصنفين في الموسوعات، فكتابه «مفتاح السعادة ومصباح السيادة» يعدّ ذخيرة للتعريف بكثير من العلوم، وله كتاب في السِّيَر هو «الشقائق النعمانية» فيه سيرة شيوخ الطرق، وله «العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم»، وله مؤلف في «البحث والمناظرة»، وله «نوادر الأخبار في مناقب الأخيار».

وقد كانت وفاته في عام (٩٦٨هـ)[(١)].

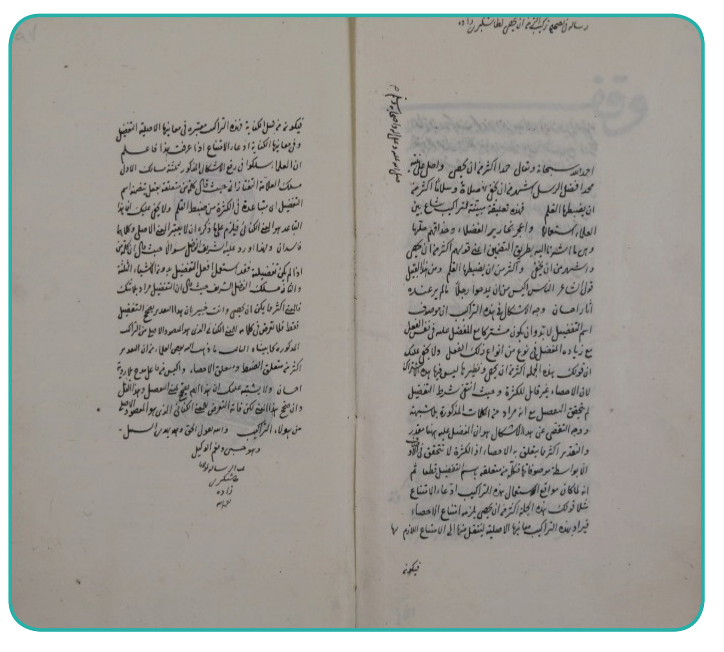
النسخ المعتمدة:

لهذه الرسالة نسختان خطيّتان:

١- النسخة الأولى وهي النسخة الأم التي تم اعتمادها في تحقيق هذه الرسالة، وهي من مقتنيات مكتبة فيض الله أفندي، باستنبول، تحت رقم (١٧٧٦).

تقع هذه النسخة في صفحتين، في كل صفحة (١٩) سطرًا، وحالتها جيّدة، كتبت بخط واضح نوعًا ما. وقد رمزت إليها بالرمز (أ).

جاء في طليعتها: (رسالة في تصحيح تركيب» أكثر من أن يُحصى» لطاش كبرى زاده)، وفي آخرها (تمت الرسالة لمولانا طاش كبرى زاده).



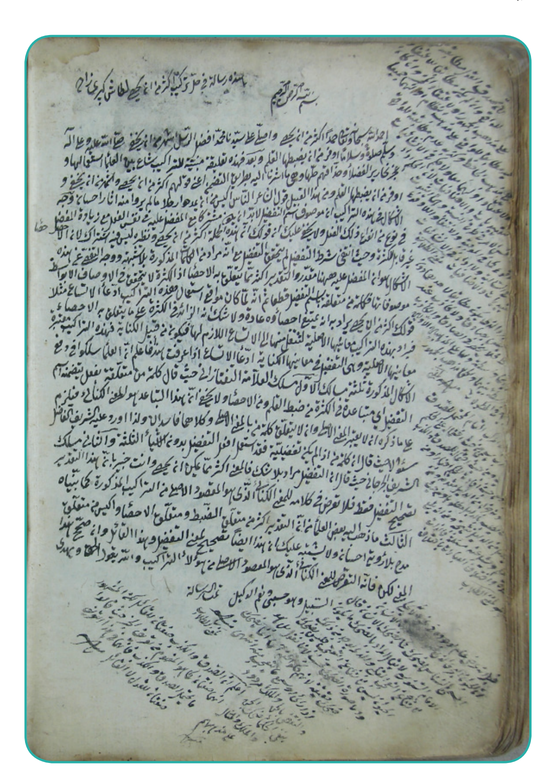
٢- أمّا النسخة الثانية فهي من محفوظات مكتبة راشد أفندي، بولاية قيصري في تركيا، تحت رقم (٢٧٥٦)، ويقع هذا المجموع في (٩٣) لوحة، وهذه الرسالة آخر رسالة فيه. وناسخه هو حافظ خليل، كما صرّح باسمه في عدة مواضع، وأمّا تاريخ النسخ ففي حدود سنة (١١٥٧هـ) كما هو مدوّن في خاتمة بعض الرسائل التي

(١) ينظر: الموسوعة التاريخية للدرر السنيّة (ج٨، ص٣)، والشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية (صفحة المؤلف).

تضمنها المجموع. والمجموع فيه رسائل متفرقة الفنون، ومختلفة المؤلفين، وفيه اقتباسات وفوائد كثيرة من عمل الناسخ، وعليه حواشٍ عديدة من الناسخ أيضًا فيما يبدو.

تقع هذه النسخة في صفحة واحدة، تحوي (٢١) سطرًا، وحالتها جيدة بيد أنها تحوي الكثير من الهوامش المحيطة بمتن الرسالة. وقد رمزت لها بالرمز (ب).

كُتب على رأسها (رسالة في حل تركيب «أكثر من أن يُحصى» لطاش كبرى زاده)، أما في أسفلها فقد اكتفى بقول (تمت الرسالة).



وصف عمل المحقق:

١- قراءة النسخة (أ)، والتي تم اعتمادها أصلًا، وتدقيق النظر فيها، ثم نسخها وفق قواعد الإملاء، مع الاهتمام بتفقير النّص وتنسيقه، ووضع علامات الترقيم المناسبة، وضبط بعض الكلمات التي قد تسبب الإشكال ضبطًا مناسبًا.

٢- مقابلتها على النسخة (ب)، وإثبات الفروقات بينهما في الحاشية.

٣- تفسير بعض الألفاظ الواردة في الرسالة بصورة موجزة.

٤- تخريج بيت الشعر والأقوال الواردة في الرسالة.





نصّ الرّسالة:

رسالة في تصحيح تركيب «أكثرَ من أنْ يُحصى»

لطاش كبرى زاده

أحمدُ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ حمدًا أكثر من أن يحصى، وأصلي على نبيه[1] محمد أفضل الرسل، أشهر من أن يُخفى - صلى الله عليه وعلى آله وأصحبه وسلّم - صلاةً وسلامًا، أكثر[2] من أن يضبطها القلم.

فهذه تعليقة مبيّنة لتراكيب شاع بين العلماء استعمالها، وأعجز نحارير الفضلاء وحذّاقهم حلّها وهي ما أشرنا إليه بطريق التضمين[3]؛ أعني قولهم: «أكثر من أن يحصى»، «وأشهر من أن يخفى»، و«أكثر من أن يضبطها القلم»، ومن هذا القبيل قول الشّاعر[4]:

النّاسُ أكيس من أن يمدحوا رجلا
ما لم يروا عنده آثارَ إحسانِ

وجه الإشكال في هذه التراكيب أنّ موصوف اسم التفضيل لابدّ أن يكون مشتركًا مع المفضل عليه في نفس الفعل مع زيادة المفضل في نوع من أنواع ذلك الفعل، ولا يخفى عليك أن قولك هذه الجملة[5]: «أكثر من أن يحصى» ونظيرها[6]، ليس فيها اشتراك؛ لأنّ الإحصاء غير قابل للكثرة، وحيث انتفى شرط التفضيل لم يتحقق التفضيل، مع أنّه مرادٌ من الكلمات المذكورة بلا شبهة[7]، ووجه التقصّي عن هذا الإشكال هو أنّ المفضل عليه ههنا مقدّر، والتقدير أكثر

(١) في النسخة (ب): (سيّدنا).

(٢) في النسخة (ب): (أوفر).

(٣) في النسخة (ب): (التضمن)؛ والضمن، وَهُوَ جَعْلُ الشَّيْءِ فِي شَيْءٍ يَحْوِيهِ، وتضمن العبارة: معنى أفادته بطريق الإشارة أو الاستنباط، ينظر: مقاييس اللغة (ج٣، ص٣٧٣)، والمعجم الوسيط (ج١، ص٥٤٤)، والتضمين: هو أن يقصد بلفظ معناه الحقيقي ويراد منه معنى آخر تابع له بلفظ آخر دلّ عليه بذكر ما هو من متعلقاته. ينظر: كشاف اصطلاحات الفنون (ج١، ص٤٦٩).

(٤) البيت من البسيط، أورده أبو بكر الخوارزمي في قصيدة له في مدح الصاحب بن عباد. ينظر: ديوان أبي بكر الخوارزمي، تحقيق حامد صدقي، (ص٤١٤).

(٥) في النسخة (ب): إنّ هذه الجملة.

(٦) في النسخة (ب): جاءت على صيغة التذكير: (نظيره).

(٧) في النسخة (ب): (تشبيه).

مما يتعلق به الإحصاء، إذ الكثرة لا تتحقق في الأوصاف إلّا بواسطة موصوفاتها، فكلمة «من» متعلقة باسم التفضيل قطعًا.

ثم إنه لمّا كان مواقع الاستعمال بهذه التراكيب ادّعاء الاتساع مثلًا قولك لهذه الجملة: «أكثر من أن يحصى»، لمزيد اتساع الإحصاء[1] فيراد بهذه التراكيب معانيها الأصلية لينتقل منها إلى الاتساع اللازم لها فيكون من قبيل الكناية[2]، فهذه التراكيب معتبرة في معانيها الأصلية التفضيل، وفي معانيها الكناية ادّعاء الاتساع.

إذا عرفت هذا فاعلم أنّ العلماء سلكوا في دفع الإشكال المذكور[3]، ثلاثة مسالك:

الأول: مسلك العلّامة التفتازاني[4]، حيث قال: (كلمة «من» متعلقة بفعل يتضمن اسم التفضيل؛ أي متباعدة في الكثرة من «ضبط القلم»)[5]، ولا يخفى عليك أنّ هذا التباعد هو المعنى الكنائي، فيلزم على ما ذكره أن لا يعتبر المعنى الأصلي[6]، وكلاهما فاسدان، ولهذا أورد عليه الشريف الفاضل سؤالًا حيث قال: (إنّ كلمة من إذا لم تكن تفضيلية فقد استعمل أفعل التفضيل بدون الأشياء الثلاثة)[7].

---

(١) في النسخة (ب): (مثلا قولك: «أكثر من أن يحصى» يراد به أن يمتنع إحصاؤه عادةً، ولا شك أنه الزائد في الكثرة على ما يتعلق به الإحصاء).

(٢) الكناية: لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة المعنى الأصلي لعدم وجود قرينة مانعة من إرادته وهي أنواع، ينظر: المعجم الوسيط (ج٢، ص٣٠٢)، ومختار الصحاح (ج١، ص٢٧٤).

(٣) في النسخة (ب): جاءت على صيغة التأنيث: (المذكورة).

(٤) هو العلّامة مسعود بن القاضي فخر الدين عمر، الشيخ سعد الدين التفتازاني، (ت ٧٩٣هـ)، عالم مشارك في النحو والتصريف والمعاني والبيان، من مؤلفاته: تهذيب المنطق، والنعم السوابغ في شرح الكلم النوابغ للزمخشري. ينظر: سلم الوصول إلى طبقات الفحول (ج٣، ص٣٢٩)، بغية الوعاة (ج٢، ص٣٧١)، ومعجم المؤلفين (ج١٢، ص٢٢٨).

(٥) في النسخة (ب): (من ضبط القلم ومن الإحصاء). ينظر: تلوين الخطاب، لابن كمال باشا، تحقيق عبد الخالق الزهراني (مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، عدد ١١٣، ص١٦٥).

(٦) في النسخة (ب): (أن لا يعتبر المعنى الأصلي، وأن لا تتعلق كلمة «من» بالمعنى الأصلي، وكلاهما فاسدان).

(٧) ينظر: تلوين الخطاب، المرجع السابق.

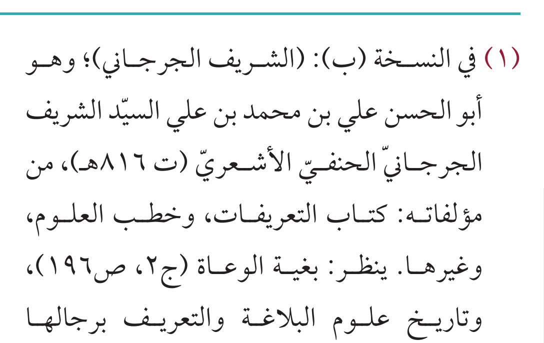
والثاني: مسلك الفاضل الشريف[١]، حيث قال: (إنّ التفضيل مراد بلا شك، فالمعنى أكثر ما يمكن أن يحصى)[٢]. وأنت خبير بأنّ هذا التقدير تصحيح التفضيل فقط، فلا تعرُّض في كلامه للمعنى الكنائي الذي هو المعنى المقصود الأصلي من التراكيب المذكورة كما بيّناه.

الثالث ما ذهب إليه بعض العلماء[٣] من أنّ التقدير: أكثر من متعلق الضبط، ومتعلق الإحصاء، وأكيس من فاعل[٤] مدح بلا رؤية إحسان. ولا يشتبه عليك أنّ هذا أيضًا تصحيح لمعنى التفضيل، وهذا القائل وإن صحّح هذا المعنى لكن فاته التعرّض للمعنى الكنائي الذي هو المقصود الأصلي من هؤلاء التراكيب.

والله يقول الحقّ ويهدي السبيل، وهو حسبي ونعم الوكيل.

تمت الرسالة لمولانا طاش كبرى زاده بحمد الله



(١) في النسخة (ب): (الشريف الجرجاني)؛ وهو أبو الحسن علي بن محمد بن علي السيّد الشريف الجرجانيّ الحنفيّ الأشعريّ (ت ٨١٦هـ)، من مؤلفاته: كتاب التعريفات، وخطب العلوم، وغيرها. ينظر: بغية الوعاة (ج٢، ص١٩٦)، وتاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها (ص١٥٧-١٥٩).

(٢) يُنظر: تلوين الخطاب، لابن كمال باشا، مرجع سابق.

(٣) يَقصد: ابن كمال باشا في كتابه المشار إليه في الهواش السابقة: «تلوين الخطاب»؛ فقد أورَد كلام التفتازاني والشريف الجرجاني وتعقَّبَهما.

(٤) في النسخة (ب): (أكيس من متعلق مدح بلا رؤية إحسانه).



رسالة في إعراب كلمة التوحيد وتحقيق معناها

لموسى بن أحمد البركاتي (ت ١١٤٢هـ)

تحقيق: سلام رحال

المقدمة:

إن هذه المخطوطة التي تقع بين أيدينا تحتوي على رسالة تتحدث عن كلمة التوحيد (لا إله إلا الله)، وقد ألمت بالأوجه الإعرابية التي تعني الدارس، والقارئ المتبحر في علوم النحو والإعراب؛ إذ استطاعت ضم العديد من الآراء المفسرة لهذا التركيب الموجود في جملة التوحيد، التي وضحت حملها على معنى إفراد الله تعالى بالألوهية والعبادة، مقارنة برأي المشركين الذين رأوا عكس ذلك.

ولهذه الرسالة أهمية تتمثل في بسط عديد من قواعد النحو المتطلبة لتفسير كلمة التوحيد، من حذف وتقدير؛ لمعرفة العلاقة التي تجمع المعنى بالتركيب النحوي من تقديم وتأخير يحمل دلالات مختلفة، بل إن المخطوطة تقوم بدورها على تقديم صورة حسنة تعكس أن اللغة العربية حمالة أوجه.

وقد جعل المؤلف رسالته في مُقدمة ومَطلب.

فأما المقدمة فهي لبيان إعراب هذه الكلمة وتحقيق معناها وما جاء فيها من أقوال أهل اللغة وأهل الأصول.

وأما المطلب فيشتمل على شرح تفسير كلمة التوحيد للقاضي محمد البركوي.

مؤلف الرسالة:

صاحب هذه الرسالة هو موسى بن أحمد البركاتي، النكدوي، الرومي (ت ١١٤٢هـ/ ١٧٢٩م)، وهو فقيه حنفي، وله مؤلفات، منها: موضح المعدل في شرح معدل الصلاة، وشرح رسالة التوحيد[1].

وصف النسخة المخطوطة:

تعود هذه المخطوطة إلى محفوظات مكتبة راشد أفندي، بولاية قيصري في تركيا، وتحمل الرقم المرجعي (٢٧٥٦)، ويقع هذا المجموع في (٩٣) لوحة، وناسخها هو حافظ خليل، وأما تاريخ نسخها ففي حدود سنة (١١٥٧هـ).

عملي في التحقيق:

قمت بنسخ المخطوطة، التي تضم إعراب كلمة التوحيد وشرحها، المتكونة من ست صفحات، وراعيت في كتابتها القواعد الإملائية، ووضعتُ بعض الكلمات بين معكوفتين مما شككتُ في صحة قراءته، وخرّجتُ الأقوال الواردة فيها، وعرّفتُ بالأعلام غير المشهورين.

كما قدَّمت بمقدمة تعريفية مختصرة توضح ما جاء فيها، إضافة إلى نبذة عن مؤلفها، وعن نُسختها الخطية.

(١) انظر معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، (ج٣، ص٩٢٩).

النَّص المحقَّق:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي لا إله سواه، المنجي مِن النار مَن قال لا إله إلا الله، والصلاة والسلام على أفضل رسل الله، الشفيع لمن قال لا إله إلا الله، وعلى آله وأصحابه الذين لم يلتجؤوا إلا إياه، المستشفعين منه لمن قال لا إله إلا الله، وبعد:

فيقول الفقير إلى الله الصمد، عبدُه موسى بن أحمد، البركاتي مولدًا، ثم النكدوي موطنًا: لمَّا كان نجاة الكل في الكل باعتقاد كلمة التوحيد، المسماة بكلمة الإخلاص، وبكلمة التقوى أيضًا، وهي كلمة لا إله الا الله، وكانت مروية لنا في بيان معناها عن المحقق الفاضل والمدقق الكامل الشيخ محمد البركوي[1]، روّح الله تعالى روحه العلى، الألفاظ المغلقة المتجانسة المفيدة، المحتاجة إلى الشرح والبيان، وسأل مني بعض الأحبة شرحها بتحقق وإيقان، فشرعتُ بعون الله الملك المستعان، وإن لم أكن من فرسان هذا الميدان، فها أنا أقول وبالله التوفيق، وبيده أزمّة التحقيق: لا بد لنا من مقدمة، ومطلب.

أما المقدمة ففي بيان إعراب تلك الكلمة الشريفة وتحقيق معناها.

اعلم أولًا أن الاسم المعظم في تلك الكلمة مرفوع فقط في القرآن الكريم، وقد ينصب في غيره، أما الرفع فعلى البدلية من الضمير المستتر في الخبر المقدر -على القول المشهور كما سيأتي

(١) هو تقي الدين محمد بن بير علي البركوي الرومي الحنفي. الملقب بالإمام وقيل إنه الوحيد الذي حمل هذا اللقب من بين العلماء الأتراك في زمانه. ولد سنة ٩٢٩هـ. وأخذ العلم عن والده وحفظ القرآن في صغره. ثم التحق بالمدارس الشرعية في إسطنبول ومنها إلى أدرنة حيث عين قسّاما شرعيًا في الجيش بترشيح من أستاذه عبد الرحمن الأماسي الذي كان قاضيًا للعسكر. كان للبركوي مكانة محبة لدى الشيخ عطاء الله أفندي الملقب بمعلّم السلطان، وقد أهدى إليه البركوي عددًا من مصنفاته، ولما بنى عطاء الله مدرسة له في بركي، أسند أمرها إلى البركوي وكلفه التدريس فيها، فبقي هناك إلى وفاته سنة ٩٨١هـ. يُنظر: معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، ج٩، ص١٢٣. ويُراجَع: دعوة جماعة قاضي زاده الإصلاحية في الدولة العثمانية، محمد داود كوري وعبد الحق التركماني، ص ١٤ - ١٥.

تفصيلـه-، والنصب على الاسـتثناء من ذلك الضميـر -أيضًا على المشـهور-، وأمـا وجـوه الإعـراب الغير المشـهورة على الرفـع والنصب فلـم نذكرها لعدم إفادتهـا الفائـدة المعتـد بهـا. وأن تقدير الـكلام علـى المشـهور لا إلـه موجـود إلا الله، فـ (موجـود) خـبر (لا)، و(إلا الله) بـدل من المسـتكن في ذلـك الخبر، واستثناء منه.

وقال الكشـاف[1]: «يجوز أن يكون لا إله إلا الله جملة تامة من غير حذف الخبر. يعني (لا إله) مبتدأ، و(إلا الله) خبره، قيل يلزم أن يكون المبتدأ نكرة والخبر معرفة، قال ليس الأمر كما قيل، لأن أصل الكلام في التقديـر: الله إلـه، فقـدم الخـبر رفعًـا لإنـكار المنكر، فصـار: إله الله، ثـم أُريد نفي الآلهة وإثباتـه تعالى قطعًا، فدخل في صدد الكلام حرف (لا)، وفي وسطه (إلا) ليحصـل غرضهـم، فصار لا إلـه إلا الله» انتهى.

وقال السـيوطي في «الإتقـان»[2]: «وقد توجب الصناعـة النحوية التقدير، وإن كان المعنى غيـر متوقف عليه، فقالـوا في لا إله إلا الله أن الخبر محذوف، أي موجود، وقد أنكره الإمام الـرازي[3]، وقال: هذا الكلام لا يحتاج إلى تقدير»، كذا في «شرح النخبة» لعلـي القـاري -عليـه رحمة البـاري-[4]، ولعـل الحق مـع الجمهـور، لأن المقصود من هـذا الكلام توحيـده تعالـى بطريق رد خطأ المشـركين القائلين بتعدد وجود الإله في الخـارج، وهذا الـرد إنمـا يحصل بنفي الوجود عن غير الله تعالى في الخارج بطريق قصر الصفة علـى الموصوف قصرَ إفرادٍ لا قصر قلب ولا قصـر تعميم -كما لا يخفى علـى المتتبـع لعلم المعـاني-، ولا يحصل هـذا الـرد بالطريـق المذكور بـدون تقدير الخبر، كمـا قاله صاحب الكشـاف، وتبعه الإمـام الرازي -كما سـبق-، لأنـه لا يعلم بدونه من ذلك الـكلام أن وحدته تعالى في الوجـود الخارجي أو في الوجود الذهني أو في نفس الأمر، لأن مفهوم الكلام أعم، ولا

(١) أي: الزمخشـري في تفسـيره المسـمى بالكشـاف، وكلامـه هـذا غيـر مثبـت في النسـخة المطبوعـة المتداولـة مـن تفسـيره، وقد نقلـه عنـه الملا علي القاري -كما سيأتي توثيقه-.

(٢) الإتقان، للسيوطي، ج٣، ص١٩٧.

(٣) تفسير الرازي، ج٢، ص١٩١.

(٤) شرح نخبة الفكر، الملا علي القاري، ص١٣٠.

دلالة للعام على الخاص بأجدى الدلالات الثلاث، فلا يحصل رد خطأ المشركين، فلا يكون كلامًا بليغًا مطابقًا لمقتضى الحال، وهذا خلاف الواقع في كلام الملك العلام، وأيضًا لا يحصل الرد المذكور بأن يكون الاستثناء مفرغًا واقعًا موقع الخبر بأن يكون معنى الكلام: لا إله غير الله، لأن الحق نفى الوجود النفس الأمري والخارجي عن غير الله تعالى، لا نفي مغايرة الإله لله تعالى.

وهذا، وأما تقدير الخبر هكذا: لا إله ممكن إلا الله، فلا يوافق التوحيد، لأنه بيان وجوده تعالى ونفي وجود إله غيره، لا بيان إمكانه وعدم إمكان غيره، ولا يحصل الرد المذكور بهذا التقدير أيضًا، لأنه لا يلزم منه قصر الوجود على الله تعالى، بل قصر الإمكان عليه تعالى، ولا يلزم منه الوجود.

قيل: هذه الكلمة كلمة توحيد إجماعًا، ولا يستقيم ذلك ما لم يكن صدر الكلام نفيًا لكل معبود بحق، والله اسم للمعبود بالحق، ومثله يكون تناقضًا في القول، وهو محال في كلمة التوحيد المجمع على صحتها، وأُجيبَ بأن المنفي في صدر الكلام مفهوم كلي للفظ الإله والمأخوذ من لفظ الجلالة فردٌ خاصٌّ من مفهوم الإله، بمعنى أن لفظة (الله) علَم للمعبود بالحق الموجود الخالق للعالَم، لأنه اسم لذلك المفهوم الكلّي، كذا في «شرح النخبة» لعلي القاري[١].

تفصيل الجواب:

إن المراد بالمنكر في تلك الكلمة هو مفهوم المعبود بالحق، لأن لفظة إله وإن كان يُطلق في الأصل على كل معبود حقًا كان أو باطلًا، لكن يُطلق في العرف على المعبود بالحق فقط -كما قال البيضاوي في أوائل تفسيره[٢]-، معناه لا يوجد مفهوم المعبود بالحق إلا في ذلك الفرد الشخص وهو الله تعالى، ولا يلزم منه استثناء الشيء من نفسه، لأن المستثنى منه هو مفهوم كلي صالح للاستثناء، وإن كان منحصرًا في الخارج في ذلك الفرد الشخص، وهو من قبيل الكلي المنحصر نوعه في شخصه، كمفهوم واجب الوجود، والمستثنى الفرد المشخص، فلا يلزم المحذور.

(١) المصدر السابق.

(٢) يُنظَر: تفسير البيضاوي، ج١، ص٢٦.



لكن بقي ههنا بحث، وهو أن هذا الجواب وإن دفع لزوم استثناء الشيء عن نفسه، لكن يلزم التناقض من حيث الحكم، لأنه لما حكم بالانتفاء في جميع الأفراد على المستثنى منه وهو مفهوم المعبود بالحق، وحكم أيضًا بالإثبات على المستثنى منه وهو الفرد المشخص لذلك المفهوم الكلي، فلزم الحكم بالنفي والإثبات على ذلك الفرد المشخص، وعلى ذلك المفهوم الكلي أيضًا، لأن انتفاء العام يستلزم انتفاء الخاص، ووجود الخاص يستلزم وجود العام على ما هو المقرر فيما بينهم، وهل هذا إلا تناقض مُحال في كلمة التوحيد، خصوصًا إذا وقع في كلام الملك المجيد، والتقصيّ عنه أن يقال: إن معنى لا إله إلا الله بعبارته مفهوم المعبود بالحق، لا يوجد في غيره تعالى، ويفهم منه إشارةً وضرورةً أن ذلك المفهوم موجود في الفرد المشخص فقط وهو الله تعالى، فعلى هذا لا تناقض من حيث الحكم، وتوضيحه أن الاستثناء لما جاء في كتاب الله تعالى وجب حمله على وجه لا يلزم التناقض، فقلنا: الكلام إذا تعقّبه مغيّر توقف على الآخر فيصير المجموع كلامًا واحدًا، كذا في «التوضيح»[١]، وتفصيله أن الأصوليين ذكروا أن الاستثناء من قبيل بيان التغيير اتفاقًا عندنا وعند الشافعي، لأنه يغير موجب صدر الكلام، إذ لولاه لشمل الكل، ومع ذلك إنه يتبين معنى صدور الكلام بأن المراد هو البعض، وأن الحكم المذكور في صدر الكلام وارد على بعض أفراده، والحكم في المستثنى مخالف للحكم في المستثنى منه، لكنْ علماؤنا قالوا: إن الاستثناء لا يثبت بعبارته حكمًا مخالفا لحكم المستثنى، بل يثبت إما بإشارته على مذهب البعض، أو بضرورته على بمذهب الآخر، ولهذا قالوا: الاستثناء تكلم بالباقي في صدر الكلام بعد الثنيا -أي المستثنى-، فالحكم ثابت بعبارته في المستثنى منه فقط، وأما الحكم في المستثنى فمسكوت عنه بالنظر إلى عبارته، لا حكم له لا بالنفي ولا بالإثبات، فلهذا قالوا: وجه كون كلمة التوحيد توحيدًا أن معظم

(١) التوضيح في حل غوامض التنقيح، عبيد الله ابن تاج الشريعة البخاري، ص٣٤٩.

الكفّار لما كان ثابتًا في عقولهم وجود الله ووجود إله غيره، فسبق لردهم كلمة لا إله إلا الله، فكان معناه بعبارته أن مفهوم المعبود بالحق لا يوجد في غير الله تعالى، ويلزم منه وجود الله تعالى إشارة، لأنه لما ذكر الإله ثم أخرج عنه ثم حكم على الباقي بالنفي يكون إشارة إلى أن الحكم للمستثنى خلاف حكم الصدر وإلا لما أخرج منه، هذا على مذهب البعض، وعلى مذهب الآخر: وجوده تعالى يثبت بطريق الضرورة، لأن تعدد وجوه الإله كما كان ثابتًا في عقولهم يلزم من نفي غيره وجوده تعالى ضرورةً، وذلك تقديره: لا إله غير الله موجود، فيكون كالتخصيص بالوصف، وليس دلالة على نفي الحكم عما عداه عندنا، فلا دلالة على وجوده تعالى عبارةً وإشارةً، بل يثبت وجوده تعالى بطريق الضرورة على ما فصّل في علم الأصول، فعُلم من هذا التفصيل أن لا تناقض في الكلام من حيث الحكم، وإنما يلزم التناقض لو لم يلحقه بيان التغيير، وهو الاستثناء، وحَكم على المستثنى منه بدون ملاحظة المستثنى بحُكمٍ مستقل، وحَكم على المستثنى بحُكم آخر مستقل، وليس كذلك كما عرفت آنفًا هذا عند علمائنا رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، وأما على مذهب الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فالاستثناء يثبت حكمًا مخالفًا لحكم الصدر بطريق المعارضة، فالتناقض وإن لم يلزمه لكن فيه كلام آخر يطول ذكره كما لا يخفى على متتبع توضيحاتهم وتلويحاتهم. هذا ما قصدناه من المقدمة.

أما المطلب ففي شرح الألفاظ المنقولة من ذلك المحقق[1]، وهي هذه:

لا إله إلا الله نفيٌ: أي نفي عبارة لوجود مفهوم المعبود بالحق عن غير الله تعالى.

وإثباتٌ: يعني إشارةً أو ضرورةً لوجود فرد المشخص وهو الله تعالى -كما مر تفصيله في المقدمة-.

---

(١) المقصود به القاضي محمد البركوي الذي تقدمت ترجمته، وعبارته في تفسير كلمة التوحيد هي قوله: ((لا إله إلا الله: نفيٌ وإثباتٌ. والمنفي لا عين له فعلى من وقع النفي، والمثبت موجود فعلى من وقع الإثبات، والمنفي عين المثبت، المثبَت عين المثبَت، والمثبِت عين النافي، عين المنفي عين المنفي، فهي ست وهي واحدة، فمن قالها حكمًا فما عرف، ومن قالها كقول الله تعالى فقد قالها وهو مؤمن)).



والمنفي: أي الذي وقع في حيز النفي موضوعًا للنفية، وهو مفهوم المعبود بالحق.

لا عين له: أي لا وجود له بدون وجود الآخر، أو على ما هو المقرر في كتب المنطق.

فعلى من وقع النفي: يعني فيلزمه أن الحكم بالانتفاء واقع على من وقع عليه الانتفاء في نفس الأمر، وهو غير الله تعالى، لأن نفى مفهوم المعبود بالحق من غير الله تعالى يسلتزم نفي غير الله تعالى، لأن انتفاء العام يسلتزم انتفاء الخاص.

والمثبت: أي الذي حكم عليه بالإثبات بطريق الإشارة أو الصورة، وهو الله تعالى.

موجود: في الخارج بلا شك.

فعلى من وقع الإثبات -في نفس الأمر-: أي فيلزمه أنّ الحكم بالإثبات واقع على من وقع عليه الإثبات في نفس الأمر، وهو الله تعالى.

والمنفي: أي وجود ما وقع في حيز النفي، وهو مفهوم المعبود بالحق على ما عرفتَ آنفًا.

عين المثبت: أي عين وجود المثبت، وهو الله تعالى، يعني أن وجود مفهوم المعبود بالحق هو وجود الفرد المثبت، لأن مذهب الحق أن وجود الكلي الطبعي هو وجود فرده بطريق كَون الوجود واحدًا والموجود متعددًا كما حققه المحققون في محله.

عين المثبت: أي المثبت بحسب الذهن والعلم.

عين المثبت: هو المثبت بحسب الخارج وبحسب ونفس الأمر، أو المعنى المثبت بحسب الخارج، ونفس الأمر هو المثبت بحسب العلم والذهن، وعلى أي تقدير كان يكون الحكم مفيدًا كما في قوله: أنا أبو النجم وشعري شعري، كان عنوان الموضوع بملاحظة غيره يغاير عنوان المحمول بتلك الملاحظة.

والمثبِت: بكسر الياء، وهو المؤمن الموحد.

عين النافي: وهو المؤمن الموحد أيضًا، فإفادة حكمه لا يحتاج إلى التأويل المذكور وإن صح ملاحظته.

عيـن المنفـي: أي الـذي وقـع عليـه الحكم بالانتفاء بحسب الذهن أو بحسب الخارج، وهو غير الله تعالى.

عين المنفي: على التأويل المذكور.

فهـي: أي القضايا المذكـورة لفظًا من قوله: «والمنفي لا عين له» إلى قوله: «عين المنفي عيـن المنفـى» سـوى التفريعيـن المذكورين.

سـت: أي سـت قضايا مفيـدة على ما عرفـت معنى كل واحد منهـا، وانما قيدنا القضايـا بقولنـا (لفظًـا) لأن قولـه: «نفي وإثبات» ليسا بقضية لفظًا، بل جزء قضية.

وهذه: أي كلمة التوحيد.

واحـدة: حكمهـا واحد، عبـادة -كما عرفت في المقدمة-.

فمن قالهـا: أي تلفظ بتلك الكلمة غير مطابق للواقع، يعني حاكمًا بدون ملاحظة آخـر كلام، وبيـان التغييـر -كمـا ذكرنـاه في المقدمـة- بـأن المفهـوم المعبـود غير موجود في فرد أصلًا.

فمـا عـرَف: أي فهو ما عـرف الإيمان والتوحيـد، وكفَر لأن هذا الحكم كفر غير مطابق للواقع، وأنه يلزم التناقض المحال.

ومَن قالها: قولًا.

كقولـه سـبحانه: أي كقولـه في القرآن العظيم ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ مرادًا منه عبـادة أن مفهوم المعبـود بالحق منتف في غير الله ومرادا منه إشارة أو ضرورة أن هذا المفهوم موجود في الله تعالى -كما فصلناه في المقدمة-.

فقـد قالهـا وهو مؤمـن: أي فهو مؤمن حقـًا، وحكمـه مطابق للواقـع، ولا يلزمه التناقض.

هذا ما سـنح خاطري الفاتر، والعلم في الحقيقـة عند الملك القادر، وحرره الفقير إلى الله الصمد: موسى بن أحمد، في سلخ رجـب المرجب، سـنة إحدى وخمسـين بعـد المئة والألـف من هجرة مَـن له العز والشرف.

تمت بعون الله

فالحمد له، والصلاة على رسوله،

وعلى آله وأصحابه عدد الذرات

في كل وقت من الأوقات.

كتبه خليل سنة (١١٥٧).



رسالة في بيان المعجزات

لمحيي الدين الكافيجي (ت ٨٧٩هـ)

تحقيق: إلهام الصيّاح

مقدمة:

إن هذه المخطوطة احتوت على رسالة تتحدّث عن بيان المعجزات التي كانت برهانًا على صدق الرسالات السماوية، وقد آثر صاحب هذه الرسالة أن يجعلها في خمسة مطالب، أولها: إيضاح المقصود بالمعجزة لغويًا واصطلاحيًا وبيان شروطها، ثانيها: التأكيد على أن المعجزة تكون في الأمور العادية المألوفة، وثالثها: أن لا تكون المعجزة في الأمور العقلية أو السمعية المتناقلة، فتكون مُدرَكة لدى الناظر فيها، رابعها: يتحدّث فيه عن حكمة وجود المعجزات، أما المطلب الخامس فيتحدّث عن فائدة هذه المعجزات وخوارق العادات.

وهذه الرسالة من تأليف محيي الدين أبي عبد الله محمد بن سعد بن مسعود، الرومي الحنفي، المعروف بالكافيجي، ولقب بذلك لكثرة اشتغاله بكتاب «الكافية» في النحو لابن الحاجب. ولد في بلاد صروخان سنة ثمان وثمانين وسبعمئة للهجرة، واشتغل بطلب العلم أول ما بلغ، ورحل إلى بلاد العجم والتقى بالعلماء الأجلاء، وقدم الشام، ثم ذهب إلى القدس، وبعدها إلى القاهرة، فأقام في مدرسة البرقوقية سنين، والتقى في القاهرة بكثير من العلماء المحققين، وظهرت فضائله بين أهل العلم، ومن أبرز شيوخه: شمس الدين الفنري، وحافظ الدين البزازي، وابن فرشتا (ابن ملك)،

له تصانيف كثيرة زادت عن المئة، أكثرها رسائل، منها (مختصر في علم التاريخ) و(أنوار السعادة في شرح كلمتي الشهادة) وحاشية على تفسير البضاوي، وحاشية على تفسير الزمخشري، وغير ذلك.

وهذه الرسالة التي بين أيدينا تقع ضمن مجموع خطّيٍّ محفوظ بمكتبة تشستربيتي بدبلن – أيرلندا، تحت رقم: (٩١٥٣/ ٢).



النص المحقق:

هـذه رسـالـةٌ في بـيـانِ الـمُـعـجِـزاتِ
تأليفُ الشيخِ الإمامِ العالمِ العلّامة أبي عبد الله محيي الدّين الكافيجي الحنفي
عامله الله بلطفه الجلي والخفي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله خالـق المبدعات، والصلاة على رسـوله المُؤيَّـد بالمُعجزات، وعلى آله وأصحابه أولي الكرامات، وبعد:

فهـذه رسـالة في بيـان المعجـزات، وخوارق العادات، وفيها مَطالب.

المطلـبُ الأوَّلُ: أنَّ المُعجِـزَةَ في اللّغَةِ هـي التـي تجعـل غيرهـا عاجزًا عـن أمرٍ مـا، فتكـون التـاءُ فيـه أصلية ويجـوزُ أن تكـونَ للنقل، كما في حقيقـة، وأمّا أخذها من نحـو قولكَ: أَعجـزْتُ الرَّجُلَ؛ فليسَ بمناسِـبٍ لهـذا المقـام. والمُـراد منها في الاصطـلاحِ: ما قُصِدَ بـهِ إظهارُ صدقِ من ادّعـى أنَّهُ رسـولٌ. ولها شـروط: وهي أن تكونَ فِعلُ اللهِ تعالى؛ لتكونَ من قِبَلِه، وأن تكـونَ خارقـةً للعـادَةِ، إلى غيـر ذلك من

سائر شروطِها المُفصّلة في محلها؛ فيكونُ مناطُها المُمكن لا الواجب، ولا المُمتَنِع، وَمُظهِرُها يدّعي النّبوّةَ.

والمطلب الثاني: أنّها تكونُ في الأمورِ العاديّة؛ حتّى تكونَ خارقةً للعادَةِ، ولا تكونُ في غيرها حتّى لا يرتفعَ الأمانُ عن الضروريّات، والوثوق عن أحكامِ العقلِ.

والمَطلَبُ الثّالثِ: أنَّ جهةَ دلالتها على صدقهِ عاديّةٌ لا عقليّة، ولا سمعيّة، على ما حُقِّقَ في موضعه.

والمطلبُ الرّابعِ: أنَّ حِكْمَتَها هي احتياجُ النّفوسِ في تحصيلِ كمالها على حدٍّ إلى مؤيَّدِ بالمُعجِزَةِ.

والمطلبُ الخامِسِ: أنَّ مصلحتها وفائدتها، هي حصولُ كمالها على وجهٍ مُعتبَر مع الأمنِ مما يُنافيهِ.

وفي هذا القَدرِ اليسير من الكَلامِ، نوعُ تنبيهٍ على المرامِ، والحمد لله على نعمة التّيسير للأنام، والصلاة على رسولهِ أفضل الرّسلِ الكِرام، وعلى آله وأصحابه أئمّة دين الإسلام، وذلكَ بحادي عشر شهرِ رمضان المبارك سنةَ..... وسبعمئة هجري.




القسم الثاني: المقالات



(١) ورقة بيضاء

د. بروين بدري

الآن لن تصلك رسائلي، لكني سأبدؤها مثل كل الرسائل: (تحية، وبعد...)، لكنها ورقة بيضاء دون حروف، ودون تاريخٍ ونهاية، ودون غدٍ، ستكون كرسائل البحر، لا تُفتح، ولا تُترجَم، ولا يقرؤها حتى أنت، ولا يفهمها أحد؛ فهي حزنٌ لم تُكتَب بيد.

هل تعلم أن عيوني الآن بقيَت في عينيك، ويقولون لك هناك: هذا آخر ما رأيت، ولا ترى بعد. عندما توقفت الحياة بيننا، علمتُ أنك لا تراني بعد، ولا تسمعني، وأنا أحاول، لكني فشلت.

مع هذا أخبرك أني بخير، لكن أفتقد كل شيء، إلا أني رأيتك في حلمي تخبرني أنك تحبني، ويومًا سنكون معًا.

سأحزن على نفسي، فلم يبقَ لي ظلال ولا عنوان ولا هُوية ولا تاريخ، سأنتظر يومَ يقولون لأهلي: يا رب آخر حزن.



(٢) عماد الفنان

د. رؤوف عماد عبد السلام

لـم أجد صعوبةً في الكتابـةِ أكثرَ من هذه التجربـة أنْ أكتـب لأبـي وأسـتاذي وأخي الكبير المرحوم الدكتور عماد عبد السـلام رؤوف، ولكن كنت دائمًا عندما يسـألونني في لقاءات سواء كانت تلفزيون أو صحافة، السـؤال الأول دائمًـا: مَـن كان مشـجّعك الأول؟ أقول: والدي منذ طفولتي، والحمد لله أنني وصلت إلى مراحل متقدمة في فنّي، وهذا أبسط رد، وفاءً له.

سأتكلم عن المؤرخ والفنان عماد ما لم يتكلم به أحد، من تجربة شخصية، ومما لم يكن معروفًا أن الدكتور عماد رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان منذ طفولته عاشقًا لفن الرسم، ولقي اهتمام والديه بالتشجيع، وإمداده بالمواد والألـوان، كان والده: عبد السلام رؤوف مدير الميزانية والحسابات في وقتها، وجدتي من أوائل الأساتذه في كلية الملكة عالية في التربية الفنية والمنزلية، كانت نعم المشجع له منذ الطفولة، كانت نشأته في بيت مثقف، يعشق الموسيقى الكلاسك، وفن التصوير، والسينما، والرسم، والكتابة، والقراءة، كانت هذه صفات وميزات العوائل العريقة.



بـدأ الدكتور عماد مشـوار الرسـم إلى سـنوات متقدمـة مـن عمـره، إلـى آخـر لوحـات رسـمها في سـنة ٢٠١٤م، كانت بدايتـه الأكاديميـه لتعلُّم فن الرسـم على يـد الفنـان الرائد الدكتـور خالـد الجادر، في مرسـم كليـة الآداب بجامعـة بغـداد، حيث كانت تصطحبه والدته إليه، ويرسـم حسب ما أذكر مِن جدتي، كان متميزًا جدًا، ونـال إعجابًـا كبيرًا مـن الدكتـور الجادر، واسـتمرت العلاقـة إلـى أن تعيـن والدي في كليـة التربيـة المجاورة لكليـة الآداب، وكانـوا أصدقـاء أعـزاء، وكثيـرًا مـا كان والـدي يتكلـم عنـه لـي، وعـن إمكانيات الاحـتراف بالرسـم، وتجارب كثيـرة منها سفرات الرسم في الطبيعة، وغيرها.

وبعد سنوات عدة وانشغال والدي التام بكتابة التاريخ، بيـن الحين والآخر، تكون متعته هوايته منذ الطفولة بأن يرسم.

وهـو أيضًـا كان عضـوَ جمعيـة الفنانين العراقيين في بدايات تأسيسـها، وهذا الحب للرسـم الذي لم يتمكن أن يكون دائمًا على تواصل به بسبب عشـقه للتاريخ والمشوار الأكاديمي، عكَسـه عليّ، كنتُ في المراحل الأولى من طفولتي، يجلس معي، ويعلمني، ويرسـم معي، ويجلب لي الألـوان، وأذكر كثيرًا ما كنا نسـهر ونرسـم سـوية، وعلمني مبـادئ الرسـم والظـلال والأبعـاد، إلـى أن عملـت أول معـرض شـخصي لـي في الصـف الخامـس الابتدائـي، وبعدهـا في الثالث المتوسـط، وبعدهـا دخلتُ المعهد والأكاديمية، وأكملت مسـيرتي لأكون فنانًا تشـكيليًا، لي أسـلوبي الخـاص؛ فهذا كان فضلـه علـيّ، وإن قلت في بدايـة المقال أنه كان أسـتاذي وأخي الكبيـر.. نعم هو اخي الكبيـر لأني تربيـت مثلـه علـى يـد والدته (جدتي) أيضًا، فقد علمتني وشـجعتني مثل ما كانت تفعل مع والدي صغيرًا.

وكتَـبَ والدي في الفن كتابًا عن الرائدة عبلـة العزاوي الفنانة في الخزف، كما كتب لـي مقدمة كتابي الأول عـن الرائدة الفنانة التشكيلية نعمت محمود حكمت.

وكانـت أجمـل كتاباته القصيـرة لي عن فنـي عندما كنـت أفتتح معرضًا شـخصيًا، وهذه من بعض ما كتب:

يغوص في زورقه الصغير

وراء بحر من الزيف

فيرى ما لا نراه

ويحيا ما لا نحياه

تتراءى له الحقيقة حلمًا

والحلم لا حدود فيه لمكان أو زمان

ففي الأعماق يتجلى كل شيء محيرًا

طلسمًا كبيرًا

فالحيرة هي الحقيقة

وليست الحقيقة إلاّ سراب!



وديان بلا قعر

وسماء بلا قمر

وأناس بلا ظلال

عالم يلفه الغموض

لكنه غموض أشد صدقًا من الحقيقة.



كتب لي هذه الأسطر سنة ٢٠٠١م في معرضي الشخصي الرابع، في مركز الفنون.

رحمك الله يا أبي، حمّلتني مسؤولية اسمٍ كبير، أدعو الله أن أكون عند حسن ظنك بي.

وداعًا يا أبي.. كانت إقامة قصيرة، لكنها كانت رائعة، عسى أن تجد جنتك التي فتشت عنها كثيرًا..

وداعًا يا أبي.. كانت زيارتك رقصة من رقصات المطر، قطرة من قطرات الندى قبل شروق الشمس.. لحنًا سمعناه لثوانٍ ثم هززنا الرؤوس وقلنا إننا توهمنا..

وداعًا أبي.. لكن كل شيئ ينتهي.. وداعًا.



[كان يقف خلفي في معارضي مستمتعًا بالفن، ويقول لي: حققت ما كنتُ أتمناه بمجال الرسم]

نماذج من لوحاته بيده:









(٣) التاريخ والذكريات

فؤاد عماد عبد السلام

نحن عائلة الدكتور عماد عبد السلام رؤوف عائلة مبنية على الذكريات، وسر سعادتنا هي الذكريات، ويعود ذلك إلى الوالد رَحِمَهُ ٱللَّهُ بسبب حبه للتاريخ، والتاريخ كله ذكريات، وأجمل الذكريات هي التي كانت مع الوالد.

كنا في كل وقت تقريبًا نسمع والدَينا الدكتور عماد ووالدتي الدكتورة بروين بدري -اختصاصها بالآثار- ما يتعلق بأعمالهم ومشاريعهم، وبالأخص والدي، حيث يروي لنا جميع مشاريع كتبه، منذ كتابتها إلى أن يكملها، فصرنا نعرف جميع كتبه من محتواها، وكيف جمعها، وكيف كتبها.

أجمل الذكريات هي التي كانت في هذه الكتب، ففي كل كتاب كتَبه والدي قصة جميلة عشناها.

وكان والدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند إكمال الكتاب وصدوره يحتفل مع العائلة فكانت تلك من أجمل الأيام.

علّمنا والدي أن نحترم العلم وأهله، فلم أسمع منه إلا كل الاحترام، ومنذ صغرنا يأخذنا إلى جميع مناقشاته لطلبته في الماجستير والدكتوراه.



وكان يرينـا معالم بغداد التاريخية التي لـم يعرفهـا أحد سـواه، حيث كنا نمشـي في بغـداد القديمـة، ويشـرح لنـا ما تحت الأرض، وليـس ما فوقهـا، لمعرفته ما هو مدفون مـن تاريخ بداخلهـا، فكانت هذه من أجمل الذكريات.

أعـطـانـا والــدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ مـن العلم والمعرفة، وعلمنا احترام التاريخ، حيث كان يقول: الإنسان بلا تاريخ كالشجرة بلا جذور.



(٤) المؤرخ الدكتور عماد عبد السلام رؤوف رجلٌ بأمّة

إياد عبد اللطيف القيسي

وأخيرًا رحل الدكتور عماد عبد السلام رؤوف تاركًا خلفة فراغًا بين أهل العراق عامّة، وبغداد خاصة، لا يُملأ، وليس يسيرًا أن يعوَّض.

التقيته سنة ١٩٧٧م في مكتبة الشيخ عبد القادر الكيلاني، وهو يعمل بصمت في مخطوطاتها، وكنت -وأنا شاب صغير- أستشعر هيبة الرجل ودماثة خلقه، وإذا بادرته بسؤال تكلّم بعمقٍ ومعرفة، وكنت قد التقيته مرارًا في المكتبة القادرية، وألفيته منكبًا على مخطوطاتها.

وكنت أطالع ما يكتب في مجلة المورد ومجلة سومر، فلي- ولله الحمد- ولع قديم في معرفة كتابات القرون المتأخرة، كما عندي شغف في معرفة خطط مدينة بغداد: محلاتها، مساجدها، منذ العصور العباسية إلى يومنا هذا، وهذا ما كنت أطالعه في مؤلفات مؤرخي العراق: د.مصطفى جواد، د.أحمد صالح العلي، ود.حسين أمين، وخاتمتهم الدكتور عماد عبد السلام رؤوف.

والدكتور عماد رغم أرومته الموصلية، لكنها بغدادي أصيل، من مدينة الأعظمية، وهو عندي خاتمة المؤرخين الخططيين الذي اهتموا كثيرًا بعصور بغداد المتأخرة، فحقق مخطوطات نادرة حول تاريخها وحوادثها، وكان ما طبع في هذه الحقبة

شحيح، وقليل من الناس مَن يدرك أهمية هذه الحقبة من التاريخ، وتراجمها ورجالاتها وأعلامها.

وقد كان حريصًا على تحقيق مؤلفات هذه الحقبة، فله أكثر من ٤٠ عملًا بين تحقيق وتأليف في ذلك، وكان يشعرك في هوامشها بأنه يمتلك مخطوطات كثيرة جدًا لم تُطبع؛ وكلما ظهر كتاب جديد له، فهو يعد كنزًا جديدًا لأهل العراق، ولطالما تمنيتُ أن يطول عمره أكثر ليخرج لنا كنوزًا جديدة.

لقد كنتُ أشعر وأنا أطالع مؤلفاته وأنظر إلى كلماته في هوامش التحقيق بأنها حبلى بالمعلومات الغزيرة التي يندر أن تجدها في مكان آخر.

إن تاريخ مدينة بغداد القريب مهمٌ، ويكتسب أهميته بعد الاحتلال سنة ٢٠٠٣م، فقد بدأ المستعمر وذيوله يغيّرون من معالم بغداد وتاريخها، مستخدمين تزوير التاريخ بشكل جليّ لإثبات أحداث مزورة، ممارسين بالقوة إبراز أكاذيب واضحة في تغيير تاريخ بغداد ومَعلمها وخططها، وكانت كتابات د.مصطفى جواد أو كتابات الدكتور عماد عبد السلام رؤوف تُعدّ وثائق نادرة لإثبات ما يزوره ويحرفه هؤلاء.

بغداد مدينة السلام التي غادرها الكثير من الأحبة من أهلها بعدما شعروا أنها لم تعد مدينة للسلام والأمن، لكن الدكتور عماد لم يذهب بعيدًا فقد سكن مدينة أربيل في كردستان العراق، ومن هناك أكمل مسيرته العلمية العظيمة.

كنّا نستشعر ذلك قبل عشر سنوات وبغداد تُغزى من غير أهلها، ويسكنها أناس جدد، بثقافة جديدة غريبة، وكنّا نقول: محنة ليس لها من أهل العلم غير مؤرخنا الراحل عماد عبد السلام رؤوف رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهي كذلك، وقد فاتحه بذلك بعض الفضلاء بمشروع تثبيت كتب جديدة تتكلم عن معالم بغداد وتاريخها الذي يراد أن يطمس عمدًا ليصنعوا لها تاريخًا محرفًا مزورًا، فأبدى استعداده لذلك.

وفي معالم شخصية الدكتور جانب آخر، ألا وهو جانب العروبة وحب الإسلام، فالدكتور عماد لم يتلوَّث بالقومية التي مزجت بين العروبة والأفكار اليسارية الوافدة من الغرب إلينا، بل هو عروبي إسلامي، يدرك أهمية الشخصية العربية ودورها التاريخي؛ ولذا يكتب عن الشخصية العربية ودورها في حمل راية الإسلام ونقلها

إلى بقية الأمم لنشر الإسلام، ويفرق بينها وبين الشخصيات الشعوبية التي شوهت تاريخ الإسلام وحضارته، ويختلف هو عن القوميين أنه على إدراكه لأهمية العروبة، فهو ينظر بفخر إلى بقية الأمم كأمّة الترك ودورها في حماية الإسلام؛ سواء في العهد السلجوقي أو عصر المماليك والدولة العثمانية، بخلاف القوميين الذين يمارسون تزويرًا تاريخيًا بجعل هذه الأمم مُستعمرة لبلاد العرب.

والجانب العظيم في شخصية هذا الطود الشامخ هو: جانب حبه للإسلام، فقد كان الدكتور عماد حريصًا على الإسلام ورجالاته وتراجمهم، وفان إذا تناول شخصيةً ما، سواء من أهل العلم أو الحكم أو الصناعة، يحيطها من كل الجوانب، مبينًا جميع الجوانب مما لا تجده في مصنّف آخر، ويصحح الأخطاء أو يعدّلها، ويصف مؤلفاته بشكل تفصيلي، وتتمنى لو أنه انبرى لتحقيق جميع هذه الأسفار المذكورة.

ولم يكن كغيره من بعض المحققين يحتكر الأعمال، بل يحث غيره على تحقيق المخطوطات حتى التي يمتلكها هو -وهي من النوادر-.

ولا يفوتنا ذكر ميزة للدكتور عماد تشبه إلى حدٍ ما مؤرخ العراق عباس العزاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مشاهدته أماكن التاريخ بنفسه، ووصف ما شاهده عيانًا.

الكتابة عن هذا الرجل جميلة ومؤلمة في ذات الوقت، فقد رُزئ العراق بفقد عالم لا يعوَّض، فهو رجل بأمّة، ونسيج وحده، وإن تعويضه يكون بمؤسسة تحذو حذوه وتسير على خطاه التي رسمها لأبناء هذا البلد الجريح.

وأخيرًا: وصية من محب لأمته وتاريخها التليد حول مؤلفاته: لقد تناثرت تحقيقاته ومؤلفاته وكتاباته الصغيرة والكبيرة في عدد من دور النشر في داخل العراق وخارجه، وتحتاج إلى تجميع إلكتروني، وتصويرها في مكتبات العراق، لتكون الأعمال الكاملة بين يدي الأمة، كي يستمد جيلنا والأجيال القادمة نهجه وهمته، ولو انبرى بعض الفضلاء لتجميع مقالاته في الصحف الورقية والإلكترونية للمّ شعث المتفرق منها.

رحم الله الدكتور الفاضل عماد عبد السلام رؤوف بما قدّم، وأجزل الله له المثوبة ورفع قدره، آمين. آمين.



(٥) المؤرخ المحقق والأديب المدقق

رياض المختار

هبني لسانك كي يجود بياني

إذْ شُلَّ مِن هَول المُصاب لِساني

إنها لَساعةُ الأحزان، عندما يُفقد منَّا أعزُّ إنسان، تُشلُّ اليد ويعجز اللسان، وتُكسر الأقلام وتُشتت الأذهان..

لقد فُجِع العراق وألمَّت به نكبة كبيرة بفقد العلامة الكبير صاحب التصانيف النافعة والتحقيقات الجامعة البروفسور عماد عبد السلام رؤوف الذي بذل جهودًا فائقة في سبيل الحفاظ على التاريخ.

ومن الواجب علينا إحياء وتمجيد هذا الأثر الرائع النافع الذي تركه خدمة للعراق والعراقيين، وإن ذكرى العلامة ستبقى عالقة في أذهاننا، وما قدَّمه على مدى أكثر من خمسين سنة.

ذكراك والأحزان عمّت نفوسنا

وليس على الموت المحتم نعتبُ

سقاك إلهُ الكون طلًّا ووابلا

سحابًا على مثواك للحشر يسكبُ

رحلَ عنَّا المؤرخ المحقق والأديب المدقق صاحب الأخلاق الحميدة والآداب الغزيرة، كتب الكثير بخطه، وهو الذي تولى فهرسة المكتبة القادرية في خمس مجلدات.

شاء ربك أن يحكم حكمه فيختطفه الموت من بين طلابه ومريديه ومن بين أهله وذويه؛ فرحماك يا رب بعماد عبد السلام رؤوف الذي كان مدافعًا عن التاريخ والعروبة.

كان العلامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنموذجًا ومثالًا في البحث والمطالعة، منطويًا على كتبه وبحوثه، يتنقل منذ عقود بين خزائن الكتب الخاصة والعامة، باحثًا عن مخطوطٍ أو كراسٍ أو كُنّاش ليخدم به تاريخ العراق، وأول ما ابتدأ به: كتاب مدارس بغداد في العصر العباسي، الذي ألفه وهو بعمر السادسة عشر -كما حدثني شخصيًا- وقال: (كتبته بعمر السادسة عشر والتقيت شيخ المؤرخين عباس العزاوي وأشاد بكتابي وحثني على الاستمرار).

كان فقيدنا عالمًا بالتاريخ، وبالأخص التاريخ الحديث، مهتمًا به ومقومًا له، وما أعلمُ أحدًا في زماننا اهتم بهذه الفترة أكثر منه، فقد أخرج كثيرًا من المخطوطات وحققها، وكان يتصل بالأحفاد ليحصل على مخطوطات الأجداد، ويعكف على تحقيقها والتوسع في إفادتها.

قلت له مرة: (إن تحقيقاتك دكتور هي كتاب في داخل كتاب)، فكان لا يترك صغيرة ولا شاردة في المخطوط إلا ويبينها أو يوضحها.

وكانت كتبه تطير في الآفاق شهرة، ولم يستطع أحد أن يستدرك على تحقيقاته، بل يستدرك هو على غيره.

ومن تحقيقاته المشهورة: كتاب حديقة الزوراء، وكتاب تاريخ الأسر العلمية في بغداد، وكتب مساجد بغداد، وبيوتات بغداد للسهروردي، الذي حدثني عن هذا الكتاب أنه كان يحققه في أيام الحرب سنة ١٩٩١م والصواريخ والقذائف في سماء بغداد، وهو على ضوء الشمعة.

ومما يميزه أيضًا أنه كثيرًا ما يحصل على مخطوطات بدون عنوان، فيضع لها عنوانًا مناسبًا، وحدثني مرة عن اختيار العنوان قال: (في التصنيف قاعدة تسمى شرط العنوان إما موافقة للمضمون أو تتجاوزه أو تقل عنه، وعلى المصنف أن يوافق بينها).

ومن تآليفه القيمة: كتاب التاريخ والمؤرخون في العصر العثماني، الذي حدثني عنه قال: (بدأت بهذا الكتاب أول



الأمر في الثمانينات، بثلاثمئة صفحة، وما زلت أضيف حتى بلغ الآن حدود الثمانمئة صفحة) وابتسم بعدها.

وليس إسهماه في التأليف والتحقيق فحسب، بل كان يُشارك في مقالات وبرامج إعلامية، ولا يتردد، وغايته الحفاظ على التاريخ، وبيان الصواب.

وكان الدكتور مشاركًا مع نخبة من الكبار في تصنيف كتاب: حضارة العراق، في ثلاثة عشر مجلدًا، وسألته عن هذا الكتاب فقال: (كتاب نافع وأنصح به).

أود أن أذكر أمرًا لطيفًا حدثني به الدكتور عماد رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: (كنت في البصرة لحضور ندوة عن التاريخ والأنساب، وكان أحدهم يلقي كلمة عن النسب وقال: «هذا النسب... صحيح، وقد أكده الدكتور عماد عبد السلام رؤوف، ووافق عليه»)، يقول الدكتور عماد: (والكلام كذب، ولم أوافق على النسب، ولا أعرف الرجل حتى، وانتظرت حتى انتهى، وأخذته جانبًا وقلت له: هل الدكتور عماد مَن وافق على هذا النسب؟ فقال: نعم. فقلت: وهل رأيت الدكتور عماد؟ فقال: نعم، يقول الدكتور عماد فضحكتُ وقلتُ له: أنا الدكتور عماد عبد السلام رؤوف! قال: فهرب من أمامي ولم أره أبدًا).

وأخيرًا أقول: كان الدكتور جمَّاعًا للكتب والمخطوطات منذ صغره، لا يفلت منه كتاب أو مجلة، وسألته يومًا عن خزانته فقال: (فيها أكثر من عشرين ألف مجلد)، وعنده من نوادر المخطوطات القديمة بخطوط مؤلفيها، إضافة إلى مقتنيات شخصية كثيرة، وكان قد رفدني بكثير من المعلومات عن أصحاب الخزائن ومآلات خزائنهم من مشاهداته الشخصية، حيث اطلع على خزانة العزاوي وكوركيس عواد وميخائيل عواد وصالح العلي وعبد الرزاق الحسني وكثير منها.

وهذه الخزانة الكبيرة العامرة نسأل الله أن تبقى محفوظة متاحة للطلبة والباحثين، وأن لا تختفي حال أُخيَّاتها وتذهب هنا وهناك وتصبح أثرًا بعد عين.

رحمك الله وغفر لك بما قدمت وأفدت، وستبقى مؤلفاتك وتحقيقاتك بإذن الله من جيل إلى آخر.



(٦) ذكريات مع الدكتور عماد عبد السلام رؤوف

د. أنمار نزار الحديثي

كنتُ صغيرًا لا يتجاوز عمري العشر سنين، دخل إلى بيتنا مع والدي -الدكتور نزار الحديثي- شخصٌ وقورٌ هادئ، كان طويلًا، وجهه أحمر من شدة خجله، وهو أبيض الوجه، جميل الشكل، أخلاقه عالية، عرّفنا والدي به وتعارفنا في حديقة منزلنا التي أدهشته، فهو كان ذواقًا يحب الطبيعة، وجلسنا فيها حيث كان الجو جميلًا، إنه العم العزيز عماد عبدالسلام رؤوف، وبالتأكيد لم أستغرب كونه دكتوراه في اختصاص في التاريخ، باعتبار أنه حقل اختصاص والدي الدكتور نزار الحديثي، لكن لصغري لم أكن أركّز في حقل الاختصاص.

تكرّرت الزيارات العائلية، وتطورت علاقة الصداقة أكثر بيننا وبينه، وأتذكر أنه تزوج حديثًا، فما زلت أتذكر كيف أصبحت العلاقة العائلية أكثر متانة، وبدأنا نخرج في سفرات في بغداد وبعض المناطق الأثرية، بحكم أنها مهمة وتصب في حقل اختصاصهم، حتى ذكر لوالدى أنه يريد أن يزور منطقة حديثة مسقط رأس الوالد، لشوقه إلى طبيعتها الساحرة والتي لا ينفك الوالد عن ذكرها في كل

مناسبة، وفعلًا ذهبنا إلى هناك، وأتذكر سعادتي بهذه الرحلة لسببين، الأول: حبي لمدينة حديثة، وثانيًا: لأن العم عماد رَحِمَهُ ٱللَّهُ وزوجته سيرافقونا في هذه الرحلة، وفعلًا ذهبنا إلى هناك، وعلى الرغم من كوني صغيرًا لا أتذكر تفاصيل الرحلة بشكل جيد، لكن لن أنسى هواية جديدة اكتشفتها في العم الدكتور عماد المختص في التاريخ، وهي هواية الرسم.

والحقيقة إن مثل هذه الهواية تدل على مدى الخيال الواسع والرقة والذوق، فهو من أسمى الفنون، ودلالتي على هذه الصفات أن العم عماد صغّر في ذاكرته الشيخ حديد وهو ضريح مشهور بين أبناء المنطقة، وعندما رجعنا كان قد رسمه بريشة الفنان المبدع، كان قد رسم مشهدًا متجانسًا لهذا الضريح وسط الهضبة التي بني عليها والألوان الجميلة لطبيعة حديثة مع سمائها الصافية، وأهدى لوالدي هذه اللوحة، والتي عُلقت في جدران بيتنا، وأصبحت جزءًا لا يتجزأ من جدار الممر وسط البيت.

تمر السنين ويمر العراق بظروف أبعدت العائلات والصداقات لأسباب عديدة، وكبرت وأصبحت طالبًا في الجامعة مختصًا في حقل التاريخ، كي يتجدد لقائي بالعم عماد بعد فراق طويل لكن بالتأكيد ليس مع الوالد فهم كانوا دائمي اللقاء بسبب حقل الاختصاص، لتصبح علاقتي به من نوع آخر، فهو أصبح بروفسور في حقل اختصاصه وعالمًا في عدة مجالات في التاريخ، حيث اهتم بالعمارة الإسلامية، وفي تفاصيلها، وأصبح يكتب سيرًا ذاتية أبدع في ميدانها وتميز، وجامعًا لمخطوطات، ومحققًا لها، فأصبح موسوعيًا في مجالات عدة، وبدأت لقاءاتي به تأخذ منحًى آخر، كونه العم، إضافة إلى العالم الذي أنظر إليه بعين الباحث الذي يستأنس بآراء العم والصديق والأستاذ والعالم.

لقد أتيح لي أن أتشرب من علمه الغزير بعد تسلم والدي منصب نائب المجمع العلمي العراقي، إضافة إلى مناصبه الأخرى، وبوساطة العلاقة والصداقة بين

أبـي والعم عماد أصبـح المجمع العلمي منـارًا ومنصة لعلم هذا الشـخص الوقور الـورع، وفي هـذه الحقبـة كان ومـا زالت حمـرة وجهـه الجميلـة والتـي تعـبر عن وقـاره ودماثة أخلاقه، لكن بشـعر أشـيل هذه المرة أضاف إلى شكله مهابة جميلة، وضحكته الخلوقة المليئـة بالحنان الذي لن أنساه ما حييت.

لقد تفاجأت بنبأ وفاته وأحزنني فقدانه، وحتـى والدي البعيد عني بسـبب ظروف العـراق حاليًا نعـى ذلـك الأخ والصديق بوصف يدلـل على الحزن والاسـتغراب لرحيل مثل هـذه القامة العلمية الذي ترك فراغًـا كبيـر في حقل اختصاصـه، وخطفه الموت على حين غرة.

رحم الله العم الدكتور عماد عبد السلام رؤوف، وأسكنه الله فسيح جناته، ولأهله وذويه ومحبيه وطلابه الصبر والسـلوان، وإنا لله وإنا إليه راجعون.



(٧) في وداع الدكتور عماد عبد السلام رؤوف

كريم عبد المجيد

الأستاذ الدكتور عماد عبد السلام رؤوف [١٩٤٨-٢٠٢١]، مؤرخ علَم من أعلام المؤرخين العراقيين المعاصرين، وهو أحد الأساتذة الذين نفخر نحن المهتمين بالتاريخ العثماني أننا عاصرناه وتتلمذ بعض منا على يديه، فهو واحد أو ربما لا أجانب الصواب لو قلت إنه أول من يأتي على رأس قائمة المؤرخين الذين جلوا لنا جزءًا مهمًا من تاريخ العراق في العصر العثماني، سواء بالتأليف أو بتحقيق تراث ذلك العهد.

تعرفت لأول مرة على اسم الدكتور عماد عام ٢٠١٥م من مقال منشور له على الإنترنت بعنوان: «من هو المؤرخ؟»، والذي أستطيع أن أقول أنه رغم صغر حجمه قد فتح لي آفاقًا جديدة للنظر إلى علم التاريخ وإلى الوظيفة الحقيقية للمؤرخ، ومنذ ذلك التاريخ كنت أحرص على قراءة مقالات الدكتور عماد، ثم انتقلت من بعدها إلى اقتناء كتبه التي تخص مجال الدراسات العثمانية، وقد أتى على رأسها بالنسبة لي معجمه المتفرد: «التاريخ والمؤرخون العراقيون في العهد العثماني» لأسماء وأعمال المؤرخين العراقيين في

العهد العثماني، وهـو عمل ببلوغرافي يندر أن تجد له شـبيهًا في المؤلفات العربية التي تتناول قرون ذلك العهد.

للدكتـور عمـاد مجموعـة ضخمة من المؤلفـات والكتـب المحققـة تجاوزت في قائمـة رأيتهـا حديثًا ١٤٠ كتابًـا ما بين تأليف وتحقيق، ونشـرَ عشرات الأبحاث في مجـلات علميـة مُحكَّمـة في الشـرق والغرب، وقـد أتى كل هذا نتيجة مسـيرة أكاديمية وعلميـة حافلة امتدت لأزيد من أربعيـن عامًا، كمـا تُرجمـت مؤلفاته إلى الإنجليزيـة والفرنسـية والكردية والتركية والفارسية وغيرها.

ولقد تَشـرَّفَت إسـطنبول بمجيئه نهاية عـام ٢٠١٩م لحضـور مؤتمـر دولي عن بغـداد في العهـد العثماني، نظمتـه جامعة السلطان محمد الفاتح الوقفية، وللأسف حالت بعض المشـاغل بيني وبين حضور المؤتمر، ولم أحظَ حينها بشـرف مقابلته شـخصيًا مع رغبتي الشـديدة في لقاء عَلم كبير كهـذا؛ إلا أنها كانت الفرصة الأخيرة لرؤيـة مـؤرخ نـال ثنـاءَ ومديحَ كثيـرٍ من الكبار الذين عاصروه في مؤلّفات وأبحاث منفصلـة تناولتـه شـخصيًا، وقـد أجمـع كلّ مَـن تـرك في حقه شـهادة على تواضعِ الرجـل وسـماحته وبشاشـته الدائمة، إلا أني لم أحظَ بأي نصيب منها مع الأسـف؛ فرحمة الله عليـه ونفعنا الله بعلمه، وأعاننا على السير على طريقه، وكتب له فردوسًا يتنعم فيه إلى أن نلقاه، اللهم آمين.



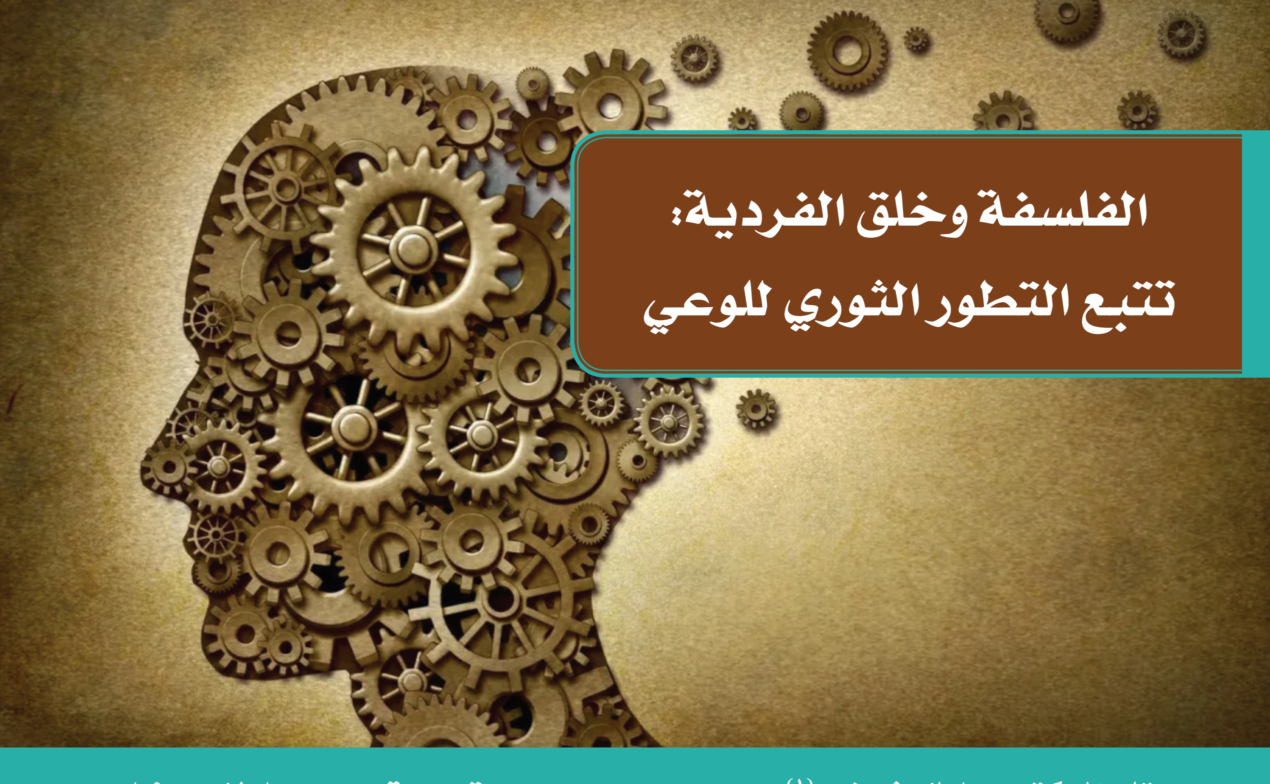



تفضل علينا الأستاذ طالب عيسى مدير المركز الثقافي البغدادي، بتزويدنا بالسجل العام لكُتب مكتبة العلامة عماد عبد السلام رؤوف المودعة في المركز الثقافي البغدادي، وهذا السجل من إعداد كادر المركز الثقافي البغدادي ومكتبة الدورة العامة بإشراف الأستاذ طالب عيسى، وذلك لنشره على موقع المجلة، ليكون متاحًا لسائر الباحثين والقراء.

فللأستاذ وكادره ومركزه جزيل الشكر ووافر التقدير.

موقع مجلة روى على شبكة الإنترنت:

www.rawamag.com



الفلسفة وخلق الفردية: تتبع التطور الثوري للوعي

بقلم الدكتور: مارك فيرنون[1]

ترجمة: عمرو عاطف رمضان

لماذا نعتقد دائمًا مرجعية الفلسفة إلى الأصل اليوناني القديم؟ فبرغم كل شيء، من الواضح أن المصريين القدماء، أولئك الذين سبقوا فيثاغورس وأفلاطون، وبارمينيديس وأرسطو، بحوالي ٢٥٠٠ سنة، قد مارسوا الحكمة أيضًا: «إن قوة الحق والعدالة تكمن في أن تسود» كما تسجل حكم «بتاح حتب» حوالي عام ٢٣٥٠ ق. م.

في كتابه «تاريخ الفلسفة الغربية» ١٩٤٥، يناقش بيرتارند راسل فكرة أنه من الصحة الظن بأن بداية الفلسفة كانت في القرن السادس ق. م. مع اليونانيين القدماء (في مدينة «ميليتوس» أو «بالاتا»، مستوطنة يونانية قديمة تقع فيما تسمى الآن بتركيا)، ولذلك لأنه فقط في هذا التوقيت بدأ الفلاسفة بتمييز أفكارهم بعيدًا عن علوم اللاهوت. وبرغم أن تلك

---

(١) نشرها بالإنجليزية في مجلة Philosophy Now، العدد ١٣٨ يونيو / يوليو ٢٠٢٠. لندن، المملكة المتحدة.

وكاتبها مارك فيرنون، معالج نفسي، وكاتب، وأكاديمي. لديه اهتمام كبير بالروحانية والحياة الداخلية. حاصل على دكتوراه في الفلسفة القديمة.

انظر: www.markvernon.com

كانت دائمًا المسألة في كتابه الشائق، إلا أن راسل في النهاية يقدم وجهةَ نظرٍ وليست قضية محققة، وعلى كلٍ، فهذا المفكر الذي يلقب دائمًا بـ«الفيلسوف الأول»، «طاليس»، نذكره أكثر ما نذكره بجملته الشهيرة: «كلُّ الأشياءِ مليئةٌ بالآلهة».

في كتاب «تاريخ جديد للفلسفة الغربية»، يطرح فيلسوف أكسفورد أنتوني كيني فكرة أن الفلسفة قد بدأت فعلًا مع أرسطو (٣٨٤-٣٢٢ ق. م.)، وذلك لأن أرسطو كان الفيلسوف الأول الذي استطاع بشكل منهجي تلخيص تعاليم أسلافه كي يكون قادرًا على نقدها. والحق أنني أظن أن هناك ما يستحق النظر في نظرية كيني، ذلك لأن المنهجية كانت طرحًا جديدًا، نهجًا جديدًا لم يتبناه معلم أرسطو العظيم من قبل، أفلاطون.

من هذا المنظور، يمكننا أن نجد حس الطبيعة الراديكالية في حركة أرسطو، هذا إذا وضعنا في الاعتبار بعضًا من الكلمات التي اخترعها هو لصنع هذه الطبيعة. على سبيل المثال: كان أفلاطون يعرف مصطلح «التناظر» Analogy، لكنه لم يعرف مصطلح «التحليل» Analysis. كان أرسطو هو الذي وضع مصطلح التحليل. يُدلِّل هذا على أنه في حين كان أفلاطون يفترض أن الغرض الأساسي من الجدال هو الإشارة إلى الحقيقة، كان أرسطو يرى أن الجدال يمكن أن يؤدي لتفكيك المادة موضوع الدراسة، بالضبط كما يمكن للتشريح تقطيع الأزهار أو الأسماك. كان أفلاطون يعرف مصطلح «الكيف» Quality، لكنه لم يعرف مصطلح «الكم» Quantity. كلمة أخرى كان لأرسطو الفضل في صياغتها. لذلك كان أفلاطون دائمًا أكثر اهتمامًا بفكرة «الوحدانية» Oneness. والثنائية والثلاثية Twoness and Threeness، عن اهتمامه بفكرة الأعداد المجردة واحد واثنان وثلاثة. إن نظرته للرياضيات كانت دائمًا نظرة تأملية، كما يعبر عن ذلك في حكايته عن سقراط، حين لاحظ الأخير قطرتا مطرٍ تتساقطان متصادمتين لتشكلا معًا كرة فضية من الماء. «أين ذهبت الثنائية؟ الانفصالية؟ الازدواجية؟ الاستقلالية؟ أين ذهب كل هذا؟!». هكذا سأل سقراط، وأما أرسطو فقد اختلف عن ذلك، كان باستطاعته

كذلك تأمل الأعداد رياضيًا، فهو يقترح مثلًا أن العدد «٣» هو عدد ممتاز، لأنه يحتوي على بداية، ووسط، ونهاية. لكنه كذلك كان مهتمًا بال«ما مدى؟» والذي يعنيه مصطلح «الكم» Quantity. بعد ذلك، أصبح المفكرون مهتمين كثيرًا بالجانب القابل للحصر لأشياءٍ توجد في عالم تجريبي! كان هذا شيئًا جديدًا! يكتب «أوين بارفيلد» هذا، بدايةً مع أرسطو: «صار باستطاعة العقل البشري الآن أن يزِن وأن يقيس، أن يفحص وأن يقارن، وظل هذا الوزن والقياس مستمرًا -على فتراتٍ- لمدة ثلاثةٍ وعشرين قرنًا»[1]. ويمكننا القول أنه بعد أرسطو، صار بالإمكان فصل المعرفة التجريبية عن المعرفة النظرية، هذا الانفصال عن فكرة «الحكمة» في الأساطير القديمة وفي التقاليد، هذان الجانبان حيث غالبًا ما نجده ملتصقًا بهما.

إن الأمر يستحق منا أن نخوض في مدى عمق هذ التحول الفكري. على مدار ألفيةٍ كاملة، شعر أسلافنا أنهم قد عاشوا في كونٍ مسكونٍ كليًا بكيانات حية، وأن هذه الكيانات الذكية قد كونت مسار حركة العالم. وعندما كتب «بتاح حتب» عن الحق والعدالة، لم يكن يقصد تلك الأفكار المجردة التي نفكر نحن بها اليوم، بل كان يفكر في تلك الخصائص الشخصية للإله «مَعت». «عظيمٌ هو مَعت» كما تقرر كتاباته الحكيمة. هذا هنا هو محض تمجيد إلهي.. الحق والعدالة ينتصران لأنه الإله معت خالد الوجود.

عالم النفس الثوري «روبين دونبار» كان يدرس عقلية تفكير القدماء بحثًا عن جذور الأديان، وقد صار مفتونًا بفكرة كيف أن جماعات الصيد الجماعي كانت تنخرط سويًا في حالة من النشوة أو الذهول، ووصل للاعتقاد أنه في العصر الحجري الأوسط، منذ حوالي ٢٥٠,٠٠٠ إلى ٥٠,٠٠٠ عامٍ مضى، اكتشف البشر أنه بإمكانهم إحداث مثل هذه الحالات المغايرة من الوعي. وقد قادهم هذا الاكتشاف إلى ما يسميه دونبار بـ«الدين الغامر» Immersive Religion، بناءًا على مواجهاتٍ خاضوها

(١) تاريخ الكلمات الإنجليزية، ١٩٢٦. ص١١١.

مع أرواحٍ وكيانـاتٍ قـد تمثلـت لهـم في رؤاهـم وممارسـاتهم الشـامانية. كان للرقصـات الطائفية والطقـوس المهيمنة الميـزة التخديريـة علـى إطـلاق هرمون «الإندورفيـن» الـذي يتدفـق في أجسـاد الممارسـين، والذي ظن دونبار في إثباتِ أنـه لا يقدر بثمـن. وكمثل هـذا الأثر من النشـوة النفسـية أحدث الأفيـون، والذي كان باسـتطاعته تخفيـف الضغـوط التـي كانـت لا محالة منتشـرة في المجموعات الأكـبر مـن البشـر. وعلـى ذلـك، فهـذه الحالة من النشوة أو الذهول، لم تقد فقط إلى إدراك الآلهة، بل لقد عززت وبصورة عظيمـة اجتماعية الإنسـان، فحيث كانت الجماعـات الرئيسـية مـن أبنـاء العمومة تشـبه جماعات الشـمبانزي، محدودة في أعـداد الأفـراد ولا يمكنهـا الاتصـال إلا بالـزواج، كانـت هـذه التجـارب الدينية البدائيـة تعنـي أن المجتمعـات البشـرية يمكنهـا أن تنمو لتشـكل عشـائر وقبائل، وفي النهايـة لتشـكل مدنًـا. وباختصـار، فقد أخذ الإنسـان طريقًـا ثوريًا حيث كان البقاء، الحكايات، والإحسـاس بسـحرية الكون، أفكارًا مرتبطة بشـدة، وكسـر هذه الروابط لم يكن عملًا سـهلًا أبدًا، بالرغم مـن ذلـك، يمكننـا القـول أن هـذا هو ما حققتـه الفلسـفة في مكتشـفها الحديـث، «التحليل» Analysis.

وبالطبـع، لـم يغير أرسـطو وحده كل شـيٍ بين ليلـةٍ وضحاهـا. بـل في الواقع، في اعتقـادي أنـه كان ليذهل مـن الصورة التـي يراه النـاس عليهـا الآن، وذلك لأنه هـو نفسـه، كان يتقصّـى رؤاه التجريبيـة والنظريـة على أنهـا «فُتوحٌ إلهيـة». ولهذا السـبب كان ينصـح أتباعـه ألا يفكـروا كمخلوقات فانية، بـل أن يتمتعوا بالفكرةِ أننا نشـارك الخالدين في خلودهم، وذلك عندما نقوم بصَقل «الأشـياء الأفضل فينا» كما نفهم الأمر! كانت نشوة أرسطو في أن يرى إلى أي مدى يمكـن لعقله أن يقبض علـي حكمـة الكـون من خـلال الحدس والسـبب. ومـع ذلـك، تحـول الأمر مع مـرور الزمن إلى أن ابتكارات أرسـطو في الجانب الفكري أمكنت من ظهور طريقة مغايـرة تمامًا للنظر إلى العالم. ما نسـميه نحـن الآن بالعلـوم المحضـة أو العلـوم

التجريبية، هي الطفل الوليد لعمله. وقد صار بإمكاننا في عصرنا الحديث أن نصف العالم دون إشارةٍ إلى الأرواح الحارسة أو الكيانات الماورائية على الإطلاق.

تغييرات جوهرية للفكر:

إذن، فقد كان كيني محقًا في بعض الأمر، كان أرسطو هو المفتاح لما يسمى «تخصصيًا» بالفلسفة، مع ذلك، ففهمي للأمر يؤكدة ضرورة وجود حركة سابقة لذلك، شيءٌ آخر كان لابد أن يحدث قبل ثورة أرسطو، ومهد الأرض للناس كي يكون باستطاعتهم تقدير قيمة التفكير تحت شروط الكم والتحليل. كان هذا تحولًا آخر للوعي - ميلاد تلك العقلية التي يُطلب منها أن تُمحِّص جوانب الواقع، وتضعها في مواجهةٍ مع خلفيتها المتدفقة عن الآلهة والكيانات الحية.

ويمكن لمقياس هذا التحول السابق في الوعي أن يكون ملموسًا إذا سألنا: «ما الذي كان يجب عليه الحدوث ليصل الأمر لفعل ما فعله أرسطو؟» لقد كتب عن «الأخلاق» Ethics، وأعطى لأول مرة سردًا منهجيًا عن كيف تزدهر. ووصف «المنطق» Logic، تلك القواعد التجريدية التي تقود الفكر. وتوصل إلى طرقٍ لفهم العالم لم توجد مصادفةً في الطبيعة، بل أوجدها باستخدام تقسيم «التصنيفات» و»الأنواع»، وباستخدام «الميكانيكا». لفعل كل هذا، كان عليه أن يأخذ خطوة عقلية للوراء، أن يحصل على دفعةٍ مَعرفيةٍ لما يسميه «توماس نيجيل»: «المشهد من العدم!». فقط من هذا المنظور المحايد العقلاني قد استطاع أن يكتب عن الأخلاق وعن المنطق وغيرهما. ولكن هذه الخطوة لم تكن في الحقيقة إنجازًا له هو، وإنما كانت من إنجاز أسلافه من الفلاسفة.

بالنظر إلى واحد من فلاسفة عصر ما قبل سقراط، أناكسيمينس (حوالي ٥٨٦ - ٥٢٦ ق. م.)، كان مشهورًا للغاية بسبب تجاربه. على سبيل المثال، قام في تجربةٍ بالنفخ في يده مرتين، مرةً وفمه مفتوح والأخرى بشفاهٍ مطبقة، ولاحظ شيئًا، عندما كان فمه مفتوحًا، شعر بالهواء باردًا، وعندما كانت شفاهه مطبقة، شعر بالهواء أكثر برودة!

ما يثير الاهتمام في هذه التجربة، أن لابد أن عددًا لا يحصى من الناس قبل أناكسيمينس قد مروا بنفس تجربته، لكن ما يجعل أناكسيمينس منفردًا، أنه قام بالتوقف أمام الأمر، تراجع في عقله أمام التجربة، وسأل ذلك السؤال الصغير: «لماذا؟ لماذا يوجد الاختلاف؟ ما الذي يحدث بالضبط؟».

بإمكاننا القول اليوم أنه قد عثر على المباديء الرئيسية لفكرة «التبريد»: عندما يتمدد الهواء، يزداد برودة. وهذا ما حدث عندما قام بإطباق شفتيه. وهو ما يسمى ب»قاعدة بويل». لكن ما حدث أن أناكسيمينس لم يفكر في البدء باستخدام اكتشافه بالحصول على براءة اختراع وإطلاق ثورةٍ صناعية. ما يذكر أناكسيمينس بسببه كأثر، يرجع إلى ذلك التحور في طريقة التفكير والذي يتضح في ذلك الفضول التجريبي. في هذا الوقت، كان حريًا الإشارة إلى أنه صار باستطاعة البشر أن يتراجعوا عن الانجراف وراء مجريات حياتهم وتجاربهم اليومية.

وهذا التراجع كان راديكاليًا. وفي الواقع لقد انزعج بعض الناس بمثل هذا المقترح، في وقتٍ كان الفلاسفة يضطهدون فيه لطرح أسئلتهم، بل لقد أدي إلى إعدام بعضهم، بما فيهم سقراط نفسه. ولم تكن المشكلة في أن الفلاسفة قد تحدّوا الحكمة المسلم به، بل لقد كانوا مصدر «إزعاجٍ» للعوام أيضًا، وكان ذلك تحدٍ أكثر إقلاقًا، ولو أنه مع مرور الزمن كان بإمكان ذلك أن يقود قيام ثورةٍ للفكر. يكمن ذكاء أرسطو في أنه استطاع قيادة الموجة التي بدأت في عصر ما قبل سقراط بامتياز، ودفع ثمن ذلك أيضًا، بالنفي لمرتين خارج أثينا.

ومع ذلك، فقد كان الأمر الأكثر راديكالية هو فكرة التوقف أمام حياتهم واستكشاف دواخلهم. وأصبح بإمكان الناس أن يفصلوا جليًا أفكارهم الفردية الخاصة عن بقية العالم -ويمكنني أن أمضي وأقول لأول مرةٍ في تاريخ البشرية- عن طريق فلاسفتهم، أولئك الذين ناضلوا لتكون لهم أفكارهم الخاصة. ما فعله هؤلاء المفكرون كان اختراع «الإحساس بالفردية» Sense of Individuality.

ويمكننا استخدام نظرية «دونبار» عن أصول الأديان لتشريح هذا الاعتقاد. بعد أن توصل إلى اكتشاف مرحلة حالة النشوة، يعتقد دونبار أن ثمة شكل ثانٍ من التدين بدأ يبرز تدريجيًا، معتمدًا ليس على الحالة المنتشية للعقل، بل على الممارسة اليومية للطقوس الرتيبة المعتادة. إراقة الخمر، ترديد الصلوات، التضحية أمام الأضرحة، زيارات الشامانات والكهنة من أجل البهجة والتشافي: رسخت هذه الممارسات خبراتٍ دينية وأشكالًا للحياة. وبجانب أشياء أخرى، عنى ذلك أن لم يعد الناس مضطرين إلى أن يتكبدوا عناء إيجاد طرقٍ مغايرة للوعي كي يحصلوا على تلك المنافع الاجتماعية للدين. إن زيارة العوالم الروحانية والأجداد صار بإمكانهم استبدالها بالاحتفالات والأعياد.

يسمي دونبار الشكل الثاني من التدين بـ»الدين العقائدي»، ويرجح حدوثه خلال العصر الحجري الحديث (حوالي ١٠٠٠٠ - ٥٠٠٠ قبل الميلاد)، عندما بدأ أجدادنا باستئناس الحيوانات، والزراعة، وبدأوا بتكوين حيوات أكثر استقرارًا. كان ذلك هو الوقت الذي بدؤوا فيه ببناء المعابد.

كانت مصر القديمة واحدة من أكبر المظاهر لهذه الحياة. يظل إرثها في الأهرامات العظيمة وفي الفنون الجنائزية قادرًا على إدهاشنا حتى يومنا هذا. وهي تمثل المرحلة الثانية. في هذه المرحلة، يبدو وكأن الإله «رع» قد فاز بهذا الصراع الأبدي في مواجهة الإله «أبوفيس»، في كل مرةٍ تشرق فيها الشمس في الصباح.

الفردية من خلال الفلسفة والدين:

بالعودة إلى كيفية اتصال الفلسفة بهذه التطورات، في اعتقادي أن أفلاطون قد تعرف حثيثًا على طريقة تفكير المصريين القدماء بعد إعدام سقراط عام ٣٩٩ ق. م. ونستطيع رؤية اهتمام أفلاطون بالديانة المصرية القديمة في المحاورات الأخيرة مثل محاورات تيماوس Timeous، حيث يصف الطقوس الكهنية والمعبدية المصرية بكونها ميكانيكية ومتحجرة. وفي ظني أنه قد قام بزيارة مناطق على النيل، وشاركهم في الأسرار، ووجدها عديمة



الفائدة، فلم تقدر على إيصاله لا بالإله رع ولا بغيره من الآلهة.

وكان نتاج هذا الفشل هو خروج شكل جديد من أشكال الوعي، ألا وهو الفردية. ويظهر إحساسه بذلك بشكل طاغ في أسئلته لسقراط. كان سقراط تجسيدًا حيًا للفردية الجديدة، وقد كلفه ذلك حياته ذاتها. لقد أزعج «ثرثار أثينا» كما كانوا يلقبونه الناس بعمقٍ لأنه جعل من سؤال: «لماذا؟» و»ماذا يعني هذا؟» أسلوبًا للحياة. تم اتهامه بالخيانة ووجد مذنبًا لاتضاح تنحيه عن أسلوب الحياة الجمعي الذي يحيا عليه مواطنوه. إحدى التهم الموجهة لسقراط كانت: «إدخال الآلهة الأجنبية». وبدلًا من المشاركة في الديانة الجمعية، كان لأرسطو علاقة خاصة واتصالٍ خاص بالإله «أبوللو» كما يقول هو نفسه في كتابه: «الدفاع»: the Apology «كان هذا هو ما أبعدني عن اتخاذ شؤون العوام، وأنا أظن أنه كان من الصوابِ أن يُبعدني».

وأصبح هذا الإحساس الخالص بالفردية ثمرة ناضجةً لأرسطو، الذي استطاع مدَّ هذه الأساليب الجديدة لحياةٍ تجعلها ممكنة الوجود، حققها من خلال أعماله الاصطلاحية والفلسفية. ويمكننا وصف الأمر كالآتي: «إذا أردت أن تعرف لماذا أصبح أرسطو لاحقًا في غاية الأهمية لمفكري أوربا في الألفي عامٍ التالين، ستكون إحدى الإجابات أن عمله بلور وأثقل وجود مصطلح «الوعي».

إنّ أشكالًا جديدة ومغايرة للوعي لا تخلق كل يوم! ويستغرق الأمر الكثير من الوقت كي ينبت ويزدهر، وهذا هو ما حدث خلال نشأة الفلسفة الإغريقية. إن الشكل الذي الأقرب إلينا اليوم من الفكر، معتمدًا على فكرة «الفردية»، جاء إلى الوجود فيما بين القرن السادس والرابع ق. م. في اليونان القديمة، والفلسفة كما نعرفها قد ولدت مع خلق الفردية.

ومع ذلك، فإنني لا أعتقد أن هذا الوعي الجديد قد انتشر تلقائيًا بعد سقراط وأفلاطون وأرسطو، بل لقد كان للمدارس الهلنستية -الأكثر شعبية في القرون التي تلت الرواقيين- دورًا كبيرًا في نشرها. وقد قاموا بتطوير أساليب لتدعيم الإحساس بالفردية عندما لاحظوا أن لها

فائدةً علاجية. لقد كانت هناك تجارب للفحص الذاتي، وتنمية الوعي الذاتي والتعبير عن الذات، والتي تمخضت عن إدراكٍ ذاتي بالزلّات ومواطن الضعف الشخصية، وفضائلها ومواطن قوتها. وكان الهدف هو تحقيق نوعٍ من الإتزان الداخلي. أطلق الباحث في تاريخ الفلسفة القديمة «بيير هادوت» (١٩٢٢-٢٠١٠) على هذه الأساليب «التمارين الروحية»، وذلك لأنها تمركزت حول الجانب الداخلي من الفردية: «توافقت التمارين الروحية غالبًا مع الحركة القائمة على أن «الأنا» كان يرتكز حول نفسه، ويكتشف بأنها لم تكن كما اعتقد كونها دائمًا»، يوضح هذا في كتابه: «ما هي الفلسفة القديمة؟» (١٩٩٥، ص١٩٠).

وأصبح الإحساس بالفردية منتشرًا بميلاد المسيحية على يد مفكرين لاحقين مثل أوين بارفيلد. وفي اعتقادي أن هذه «الديمقراطية» في فكرة الفردية كانت سببًا أساسيًا في هذه الشعبية الكبيرة للمسيحية في القرون المتقدمة من الألفية الأولى بعد الميلاد.

آمن المسيحيون بأن المسيح هو إنسانٌ بالكامل وهو إلهيٌ بالكامل معًا، وأن رسالته كانت لجميع الناس ليؤمنوا بها على حدى، وقد حولت هذه الفكرة «الفردية» لتتحول من كونها منجزًا فلسفيًا لكونها مثلًا أعلى للإنسانية كلها.

ومرة أخرى باستطاعنا رؤية الدليل على هذا التحول في الكلمات الجديدة التي راحت تظهر على السطح. على سبيل المثال: في القرن الثاني، عرَّف المُدافع عن المسيحية «جاستين مارتير» لأول مرةٍ معنى أن يكون لديك «إرادةً حرة» في شكلٍ يمكننا نحن الآن فهمه وتمييزه، فكرة «وكالة المرء عن نفسه». وعلى صعيد آخر، تم اتهام شخصٍ لأول مرة بالانتحال الفكري، تقريبًا في نفس الفترة الزمنية، حيث أنه قد أصبح من الممكن القلق بشأن الحقوق الفكرية، إذ أن ذلك «الفرد» الذي قام بكتابتها قد أصبح لوجوده أهمية. وقد بدأ المسيحيون كذلك بالتآخي والتوحد فيما بينهم، لا لأنهم انتموا إلى نفس العائلات أو المدن كما كان الأمر في العالم القديم، بل بسبب



ذلك التحول الشخصي والانتماء إلى ذلك الإيمان الجديد. لقد صار بإمكانهم أن يتواصلوا بكونهم كيانات فردية، وليس بكونهم أقارب أو مواطنين، وهذا كان سبب انتشار المسيحية: «كانت الميزة الأقوى للمسيحية هي قدرتها اللامتناهية على تكوين شبكات تشبه القرابة بين أناسٍ غرباءٍ عن بعضهم كليةً» يكتب المؤرخ «كايل هاربر» في كتابه «مصير روما» (ص١٥٦، ٢٠١٧).

وقد شابه وعيهم وعينا نحن كثيرًا في كونه يحمل «الفردية»، لكنه لم يكن كوعينا بالضبط، لأنه، بنهاية العصور القديمة وبداية العصور الوسطى، ظل «الأفراد» يشعرون في داخلهم بالطبيعة والكون والإله.لم يعد في اعتقادهم أنهم يساقون أبدًا وراء إله المصير أو الأرواح، ولكن أصبح باعتقادهم أنهم إذا عاشوا حياةً فاضلة، فإن فرديتهم بإمكانها أن تعكس حياة الرب نفسه. مع ذلك، في عصورنا الحديثة تحوَّل شكل الوعي مرةً أخرى، وأصبح ممكنًا التشكيك في نظرياتهم، وحتى التشكيك ف المعبودات والأرواح. وأصبح بإمكاننا أن نكون فردياتٍ منعزلة، مُنصرفةٍ عن العالم من حولنا، الشيء الذي يمكننا اعتباره الكفُ عن وجود أي حياةٍ داخليةٍ بذواتنا.

وحتى مع هذا، فيمكننا دائمًا قراءة أفلاطون وأرسطو والفلاسفة الهيلنستيين، وإيجاد أنهم قد أناروا حياتنا بصورةٍ كبيرة، لأننا، بشكلٍ ما، ما زلنا نشاركهم في وعيهم. عندما نعرف عن حياة سقراط وموته، فإننا نعرف ما الذي خاضته الفردية لكي تولد إلى الوجود، هذا الإحساس بأن تضحيته كانت هي السبب في خروج طريقة رؤيتنا هذه للحياة. نحن نعجب بسقراط ونقدره، ولا نرى أبدًا أنه كان خائنًا بل نراه بطلًا، وهذا السبب هو ما يجعلنا نعتقد دائمًا في مرجعية الفلسفة للأصل اليوناني القديم.



ألوان على رقعة الشطرنج

د. سامي محمود إبراهيم

من المعلوم أن العقل البشري أساس حركة الإنسان في حياته، إذ هو المنظم والموجهة والقائم بأمر الفعل الواعي الآدمي، لذا كان وجوده في حياة الإنسان وجودًا خاصًّا في حدّ ذاته، وكرمًا ربانيًّا لبني آدم على سائر المخلوقات، يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠] صدق الله العظيم.

إنه التكريم والتشريف العظيم، إذ يتفق المفسرون على أن التكريم إنما هو بالعقل والمنطق وتسخير كل شيء لهذا الكائن العجيب. إن العقل هو الدعامة الكبرى التي بنيت عليها الكثير من مقومات تكريم الله للبشر، ومع العقل كان سر الحضارة الإنسانية وقوة الاجتماع البشري عبر الزمن. وبدون العقل لا يكون هناك إنسان، ولا تقدم ولا رقي ولا وعي بأي شيء كان.

ومما لا شك فيه أن التفكير الناجح لا يأتي من فراغ. ولا ينبع من مصدر سطحي، فعملية التفكير تكون قوية عندما تعتمد على الحقيقة والواقعية. وإن



الفكر الإنساني نفسه يتكئ على قدرات ذاتية متمركزة في بناء الإنسان الجسمي والنفسي، وهنا قد تختلف القدرة الفكرية من شخص إلى آخر. ولكن لا بد من القول أن القدرة الفكرية للإنسان تتوقف عند حد معين، ما لم يتم تغذية العقل بالمعلومات وبكسب التجارب والخبرات، لذا نجد إن كثيرًا من الدراسات والبحوث العملية قد تطرأ على بعضها تعديل أو تغيير شامل، ذلك نتيجة لتوافر معلومات ساعدت على معرفة الحقيقة، وهناك الكثير من الأمراض التي كانت في زمنٍ ما أمراضًا خطيرة أو مستعصية ويعجز العقل البشري عن إيجاد الدواء لها، وأصبحت اليوم بفضل تقدم وتطور العلم من الأمراض التي يمكن علاجها، وهناك أمثلة كثيرة في شتى مجالات الحياة. لذا ومما تقدم علينا في عصرنا الحاضر أن نسأل أنفسنا بوضوح، كيف نفكر؟ كيف نعقل؟ بل كيف نتعقّل في عصر الفوضى والجنون؟! لقد وصلت الإنسانية إلى مستوى الجنون، فكيف والجنون أصبح آيات مدهشة في حكم زمن استقالة العقل والتعقل، أصبح هناك ممارسة علنية لعقلنة الجنون، نمارس عادة الكلام بين الكذب والنفاق، وكأننا نصعد المطر إلى السماء.

طالَبوا الإنسان بالتعقل زمن الفوضى، علمًا أن التعقل في قاموس الحضارة المعاصرة تخاذُل وجبن بليغ، وعزف على وتر الخنوع، فلا للجبن عنوان دونهم، ولا للخنوع ملوك سواهم، لذا انهار الأمن العالمي، انهارت المفاهيم، انهارت الإنسانية وتهاوت، انهار النظام الاقتصادي العالمي، لأن بنك المفاهيم الإنسانية فقد رصيده في سوق النخاسة، وتمكنوا من احتلال الحيوان الناطق في عقل الإنسان، لكي نصادق على صكوك الغفران الممنوحة للإنسان الذي يستبيح دم أخيه الإنسان.. حينما يعلن جهرًا أن الإنسان قتل الحق انتقامًا من حواء التي أغوت أبانا آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ!

إزاء هذه التناقضات علينا أن نضحك ملء حناجرنا، لنتلمس بيت القصيد: كيف غدا الجنون من رحم الإنسانية وليدًا؟ وبات التعقل دربًا من الأوهام؟ حيث لا زال هناك متسع من إراقة الدم

الحرام.. ترى كم من الوقت يلزمنا لنعلم أن التعقل يعني حضورنا والحياة؟

يقوم «آلان دونو» بنوع من التمرين الفكري حول هذا التحدي الهائل والمريب، والغامض مع ذلك الذي تمر به البشرية، ويقصد به التفاهة المنتشرة، كما يؤكد دونو أن التافهين قد حسموا المعركة، من دون قتال، ربح التافهون الحرب وسيطروا على عالمنا وباتوا يحكمونه.

ففي كتابه «نظام التفاهة» يذهب «دونو» إلى أن التفاهة هي مرحلة من مراحل تطور النظام الرأسمالي الاحتكاري، إذ تحولت فيه المهنة إلى وظيفة لتضمَن لك البقاء فقط على وجه الأرض. التفاهة هي أن يعمل العامل تسع ساعات في مصنع للسيارات دون أن يستطيع إصلاح عطل بسيط في سيارته، وينتج العامل مواد غذائية لا يستطيع شراءها، ويبيع المؤلف كتبًا عديدة ولا يستطيع قراءة سطر واحد منها، إذ أصبح العمل تغريبيًا وتشييئيًا لا يحقق أبسط مقومات الرضا والعيش.. هل لا زال بإمكاننا أن نهتف مع ماركس في أن الأوضاع الميؤوس منها في المجتمع الذي نعيش فيه تملأنا بالأمل، أو أن نتفق مع سلافوي جيجك في أن الشجاعة الحقيقية هي ألا نتصور بديلًا آخر.. والاعتراف بأن الضوء في نهاية النفق ما هو إلا قطار مقبل من الجهة الأخرى؟!

ليست الأشياء ما يقلق الناس ولكن أفكارهم عن الأشياء، كما يقول إبكتيتوس من هنا يبدأ طب العقول أي الفلسفة. فلا تنفعك الوصفات الطبية في معالجة الشعور بالسأم من الترقب وتكرار المشاهد، علمًا بأن الإنسان هو الحيوان الوحيد الذي قد يشعر بالملل ولا يريد أن يكون ما هو عليه، حسب تعبير ألبير كامو. كيف يكون رد الفعل إذا تطلب الموقف أن تفرض حجرًا صحيًّا على نفسك؟

طبعًا لا توجد أدوية للتخلص من الملل، لذلك من الأفضل أن تتقبل قدرك. يشبّه الحاكم الروماني القدمي ماركوس أوريليوس الإنسانَ المتبرم من كل شيء والساخط من كل الوضع، بخنزير الأضحية الذي يرفس ويصرخ. ومن المناسب في هذا الصدد تذكر قصة



الفيلسوف الرواقي إبكتيتوس الذي كان عبدًا لإيافروديتوس، الأخير نكل به وعذبه بطريقة غريبة حيث وضع رجل الفيلسوف في آلة التدوير مترقبًا رد فعله، وما من صاحب المختصر إلا أن قال ستكسرها. وفي ذلك صورة واضحة لتحمل الشدائد والتجلد، فالحكمة برأي الرواقيين تكمن في قدرتك على أن تفرق بين الأشياء ما يمكن تغيره وما لا يمكن.

إذا كل ما يحدث في الواقع فهو منطقي، وأنّ فَهْمنا للحياة يتعمق كلما شعرنا بأننا نعيش في الخطر يقول نيتشه: «أنا أعرف الحياة معرفة جيدة لأني كنت على وشك فقدانها» فكان المرض أول شيء لمعرفة الحياة. وقد عرّف سقراط التفلسف بأنه استعداد للموت، مطالبًا بأن نواجه هذا المصير الحتمي مثلما نواجه الحياة. ويرى أنكسمندريس أن كل ما ينشأُ يصيبه الفناء وكل ما يولد جدير بالموت، ولولا الخوف من الموت لما كانت الفلسفة ولا الدين على حد قول شوبنهور.

إذن نجد أنّ دَور الفلسفة يتمثل في تهدئة المشاعر السلبية، ومنع تناسل الأهواء الحزينة، وحمايتك من الوقوع في منزلق الخوف والهلوسات. فالموت من منطلق الفلسفة دافع للتأمل والتفكير وإدراك الصراع بين الرغبة في البقاء والوعي بالنهاية.

وفي الأخير نقتبس من لوكريتيوس مبدأه لمعالجة الخوف من الموت، إذ يقول: «حيث أوجد أنا، لا يوجد الموت» فلمَ القلق؟






حديثٌ ذو شجون: غفلةُ المثقَّف

عبد العالي القاسمي

التجاربُ البشرية ثروةٌ معرفية، إذ في كنفها تَتَّضح معالم مسارنا، مهتدين بإشراقات التاريخ وظلماته، زادُنا في دربٍ متشعّبِ المسالك ضبابيِّ الرؤى.. دونها عبثًا نبحث عن شَرَارَةٍ في جمرةٍ هامدةٍ تحتَ رمادٍ لتنير الطريق!

إنه لَغاية الخُسران دفن تاريخ في غيابة الجّبّ، فلا موردًا متعطشًا ليرتوي!

المُسَاءلة التاريخية قنديل رحلة الاستغوار، بها يُنْفَضُ الغبار عن الحقائق المعتمة، لتنبض من جديد؛ فالفكرة لا تموت، إنما تهمّش وتغيّب، لصالح نكسات سطحية، لامعة في ظاهرها، خاوية الجراب.

المضني أنها لا تظهر على سجيتها، إنما تبرز في سيرورة مضللة، متسربة من كل منفذ، متصدرة بجمال مصطنَع بَريقه، فنصبها الناس تمثالًا!

طبيعة الحياة المتدافعة، تجعل لكل خطوة زلّة وعلّة، تزداد العثرات بطول الطريق، فلا بد مما منه بد؛ إيضاح الخطى وإبصار موضع القدم، فـ«لولا جناية العجلة والطيش.. لصحّت العقول»[١].

(١) عبدالعزيز الطريفي، العقلية الليبرالية، ص١٧.

والمثقف منغمس في زخارف الضلال، المتأنِّق بزينة الحضارة، المتستِّر برداء الرقي!

فما أكثر ما نفثت الأفكار الغربية ومن وَالاَهَا؛ نقيع سمِّها بين ظهرانينا، قاصدين من لا يزال في مهد طريقه ليكون ما يحمله كالعِلقة[1]، وبالأخص عقول الشباب الحائر المندهش، كي تتخذ منهم دمى تصيخ لِغيِّهم وتنجرُّ وراء مطامعهم الدنيئة ومقاصدهم المسترذلة.

وَدُمًى لَمْ تَـزَلْ تَسِيرُ اضْطِرَارًا
فِي غُرُورٍ يَنْفِي المَسِيرَ اضْطِرَارَا[2]

وها نحن في غياهب الدنيا نبحث عن النور.. أمام غزو ثقافي غمرنا بقلق معرفي وفكري، خلّف سيلًا من الأزمات.. تتفاوت درجاتها دنوًا ورفعة، باسطًا سطوته بدهاليز ماكرة، موئدًا للأخلاق متعطشًا للمادة!

فإن لم تكن لك مثبتات في زمن المثبطات، لا يراق وقتك على قارعة السفاسف، ولم تنجرّ بعدُ خلف الماجريات؛ فاعلم أن السيل لم يصلك فقط، فلا تأمن على نفسك السلامة!

وإذما عزمت الاستغوار في مسلك محفوف بالأشواك، موليا وجهك وجهة غير محتفل بما ستنال، بحثًا عن حقيقة خالصة حُرّة لا ترضى ضُرة، وللحقيقة كبرياء يجعلها لا تقدم نفسها إلا لمن طلبها، كذلك الصّواب المحض دكتاتورٌ لا يقبل التفاوض.. وما طلَبَ التجرُّدُ حقيقةً إلا ظفرَ بها ومكّنته من نفسها؛ ومهرها الجدّ في البحث وعدم التواني!

كما لا مبلغ من تصويبٍ صائِبٍ بنظرة قاصرة، كذلك الإقبال على تفكيك الأفكار ونقدها دون أدوات بحث حقة، تطفُّل يشاع في البيئة الضحلة!

قد استشرى هذا الداء وتمكّن، فكيف

(١) العِلْقَة (بكسر فسكون): أَوَّلُ ثَوبٍ يُتَّخَذُ للصَّبيِّ، جاءت بمعنى أول الأفكار، لما لها من سطوة على الفكر.

(٢) محمود شاكر، ديوان اعصفي يا رياح، ص١٤٠. قصده أن هناك أقوامًا كثيرين كالدمى الخشبية يسيرها الممسك بخيوطها، لكنهم رغم ذلك يدعون غرورا أنهم يمشون بأنفسهم، كهؤلاء الذين ينفذون أجندات الغرب، وهم يدعون الحرية والوطنية والثقافة، وهم في الحقيقة دمى في أيدي الغرب.

نغض الطرف، وعلى مرآنا هؤلاء صباح مساء يضعون أهل المعلاة أسفل الثرى ويرفعون أهل المهازل والمساخر فوق الثريا؟!

لا بد للناظر في أحوال الواقع وأهواله أن تخالجه غصّة أمام هاته الصورة المعتمة.. ويصيبه من حسرة ابن قتيبة في قوله: «فَإنِّي رَأيتُ كَثيرًا مِن كُتّابِ أَهلِ زَمانِنا كَسائرِ أَهلِه قَد استَطابُوا الدَّعَةَ واستَوطَؤُوا مَركبَ العَجزِ وَأعفُوا أَنفسَهم مِن كدِّ النَظرِ، وَقُلوبَهم مِن تَعبِ التَّفكُّر! حينَ نَالُوا الدَّركَ بِغيرِ سببٍ وَبلَغُوا البِغْيَةَ بغَيرِ آلَة؛ وَلَعمرِي كَانَ ذَاك فَأينَ هِمّةُ النَفس؟!»[1] هذا في زمانه! فما ترك مثقّفو زمننا من قول، بعدما أحكم الوثاق من علية المنازل سفلة القوم، وهم ينظرون من برجهم العاجي بنظرة استعلاء واستخفاف، كأنهم صعدوا لِيُرو لا لِيَرَو!

مَن لا يتحرك يجمد، كذلك العقول التي في سبات طال عليه الأمد، فكرها يصدأ!

وهناك عقولٌ مشتغلة لكنّها كالآلة، مدجنة، لا تسمع فيها إلا تردد صوت سائسها.

هي غفلة تستوطنُ العقلَ، ولمّا تُزالُ الغفلة المرخية بظلالها بنور الوعي، سنبصر أنوار الحقائق. وقد طال الليل الواقب، رجاؤنا في فجر قريب!

في غمرة الأحداث وغمارها، ما بين سطوع و انطفاء، ثمة نبض الأفكار يتذبذب.. في ساحة تموج بتيارات مختلفة السبل والمبتغى، يبحث الحائر عن ذاته.. وكثير العثرات تتكرر في طيات سيرورة البحث، كأن المثقف يأبى أن يتعض بمن سبقه.. موليًا وجهه قبلة غير موليها!

ينظر حوله؛ فيذهله ركام الحطام الذي خلّفه.. كرماد تذروه الرياح.. وما هي إلا أشلاؤه التي تساقطت في خريف عمره مجتمعة، فها هو ينعم بربيع يعلم يقينًا أن له موعدًا وأجلًا، لكن طول الأمل مغرٍ!

«وإذا أسأنا فابتلينا بتمام الغفلة فذلك ذلُّ الأبد»[2]، لله در شيخ العربية محمود شاكر يصف هذا الحال بقوله: «يُصبحُ

(١) أدب الكاتب لابن قتيبة، ص٧.

(٢) محمود شاكر، أباطيل وأسمار، ص١٢٦.

الزمـان حُطامًا مـن السـاعاتِ والأيام، و رُكامًـا من الشـهور والأعـوام... وإذا بلغ الأمرُ بنـا هذا المبلغ، فقد يكـونُ من أكبرِ الجهـل أن يُسـمَّى هـذا (غفلـةً)، إنما هو ضربٌ مـن الموتِ يُصيبُ الحـيّ، وينقلهُ إلى لَحْـدٍ مُظلمٍ لا تراهُ العيـونُ، وهو بعدُ مُقيم على ظهرِ الأرضِ يسعى أو يتحرَّك! أو يتكلَّـمْ!»[١] إنّ عتمة الغفلة وعتمة القبر سيّان، والأُولى أشد!

يظـل رجاؤنا في وعد الله المقرّر، حيث «لا بد للأمة الإسـلامية من ميلاد؛ ولا بد للميلاد من مخاض؛ ولا بد للمخاض من آلام!»[٢] وغالبًا ما ينبثق من ثنايا النهايات الحالكة فجرُ بداياتٍ لا يزول!

(١) محمود شاكر، أباطيل وأسمار، ص٤٤١.

(٢) من مشهور عبارات السيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ.



القول الشاذ في الفقه الإسلامي الأسباب والآثار

فتحي بن عبد الله الموصلي

إنّ النظَر الجامعَ هو النظَرُ إلى الدليل والدلالة، وإلى المعارض لهما. أو كما يقرر بعض العلماء: هو النظر إلى المسائل والدلائل والمخالف؛ فيتوصل الناظر بهذا النظر الجامع إلى حقيقتين مهمتين:

الحقيقة الأولى: أنّ الترجيح لا يكون إلا بعلم ودليل.

والحقيقة الثانية: العلم بمرتبة الخلاف قوةً أو ضعفًا.

فلا يَتّبِع المرجوح والضعيف، ولا يخالِف ما عليه الأولون. فيتّبع الصحيح والراجح من الأقوال، ويَحذَر من مخالفة الأئمة الأعلام.

لهذا ينذُر -عند تطبيق هذه الحقائق والأصول- وقوعُ الباحث في الزلات، ويبعُد أخذه في القول الشاذ؛ لسلامة منهجه، وصحة أصوله، وثبات طريقته، واستقامة دينه، وقوة احتياطه. ولو قال قولًا شاذًا عن غفلة أو كبوة، لبادروه الكبار بالاعتذار، وعاملوه الفقهاء بالنصح والبيان؛ فلكلّ فارسٍ كبوة ما لم تكن له عادة.

والقول الشاذ في الفقهيّات، هو القول الذي ليس مع قائله دليل من كتاب الله تعالى، ولا من سنة رسوله ﷺ، وقد خالَف

صاحبُـه أقوالَ سـائر الأئمـة والفقهاء؛ أو هـو كلّ ما صحت السـنة بخلافه، وانعقد الإجماع على عدم قبوله.

لهذا فإن حقيقةَ القول الشاذ تدور على (المخالفـة): خـلاف ما دلّ عليـه الدليل الشـرعي، وخلاف مـا عليـه الأولون من الأئمـة والمجتهديـن؛ إذ الشـاذ في معنـاه العام هـو ما كان خلاف الحق سـواء كان بقصد أو بدون قصد.

وغالبًـا مـا يُطلـق الشـاذ في الفقه على القـول الذي خالَـف صاحبُه أقوالَ سـائر العلماء والفقهاء.

وهذه المخالَفة للإجماع أو لقول سائر الفقهاء هي أثرٌ من آثار مخالَفة ما دلّ عليه الدليـل الشـرعي؛ لهـذا صـارت مخالفة الإجماع مظنة وجود القول الشاذ.

ومثالـه: القـول بعدم جـواز الحج عن الغير مطلقًا؛ فهذا قول شاذ خالف صاحبُه الدليل الشـرعي الصحيـح من جهة، وهو أيضًا خلاف قول سائر الفقهاء.

ومثالُه في مسـائل الاعتقاد: أنّ الإيمان هو مجرّد قول اللسـان، وهـذا قول باطل شـاذ؛ لمخالفتـه أدلة الشـريعة مـن جهة، ومخالفته إجماع أهل السـنة والجماعة في أنّ الإيمـان هـو قول وعمَل: قـول القلب واللسان، وعمل القلب والجوارح.

والقـول الشـاذ هـو من بـاب الخلاف الضعيف غير المعتبَر، الذي يكون مدركه ضعيفًا واحتمالاتـه في الدلالة بعيدة؛ فهو (بعيد المأخذ، ضعيف المدرك، لا يشـهد له دليل ولا يوجد له نصير).

وأسـبابه كثيـرة: تارة عن غفلة وسـهو، وتارة عن توهم ببلوغ مرتبة الاجتهاد، وتارة عن تساهل وتقصير في النظر والاستدلال، وقـد يكـون عن تأويـل، أو عـدَم الإحاطة بالخـلاف، أو عن اجتهادٍ غايـة ما يقال في صاحبه: هذا مبلغه من العلم.

لهـذا قد يقـع القول الشـاذ مـن متفقهٍ تعجّل في الـكلام في الأحكام، كما قد يقع من عالِم فاضل فيكون قوله الشاذ معدودًا في الزلات.

وتترتـب جملة مـن الآثـار والأحكام على وصف القول أو الرأي بالشذوذ:

أولًا: الإنـكار علـى القـول بالحجـة والبيان.

ثانيًا: لا يلتفت إليه ولا يعتدّ به.

ثالثًا: لا يذكر إلا حكايةً، لا اعتمادًا أو اعتبارًا.

رابعًا: ويعامل معاملة الأقوال المهجورة المتروكة؛ فيطوى ولا ينشر.

خامسًا: لا يكون مذهبًا متبوعًا؛ إذ لا اعتبار بالقول الشاذ.

سادسًا: لا يكون ناقضًا للإجماع؛ فما كان على خلاف الأصل فلا عبرة به.

وهاهنا تنبيهات ثلاثة:

التنبيه الأول: أنّ اتباع القول الشاذ بعد ظهور الحجّة داخل في باب اتباع الهوى.

والتنبيه الثاني: صدور القول الشاذ من بعض العلماء لا يكون قادحًا في مكانتهم، ولا يمنع من التحذير من مقالَتهم؛ فتُرفع الزلة من غير مساس بالمكانة.

والتنبيه الثالث: تَتَبُّع الأقوال الشاذة في الفقه وجعلها مذهبًا متبوعًا أو دعوةً مشهورةً نَقصٌ في الدِّين وقدحٌ في العدالة.



حَقِيقَةُ التَّوحِيدِ والشِّركِ

بَكر آل مَهدي

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالمَينَ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلَامُ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ الأَمين، وَعلى آلِهِ وَأَصحابِهِ أَجْمَعينَ، وَبَعْدُ:

فَهذا مُختَصَرٌ فِي بَيانِ حَقيقَةِ (التَّوحيدِ)، وَضِدِّهِ (الشِّرْكِ)، أَسأَلُ اللهَ أَنْ يَنفَعَ بِهِ مَنْ قَرَأَهُ، وَنَشَرَهُ.

أوَّلًا: التَّوحِيدُ:

هُوَ (إِفرادُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالعِبادَةِ -وَحْدَهُ-، وَهُوَ حَقُّ اللهِ على عِبادِهِ).

عَنْ مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ عُفَيْرٌ-، فَقَالَ: (يا مُعَاذُ: هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللهِ عَلَى عِبادِهِ، وَمَا حَقُّ العِبادِ عَلَى اللهِ)؟، قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: (فَإِنَّ حَقَّ اللهِ عَلَى العِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقَّ العِبَادِ عَلَى اللهِ أَنْ لاَ يُعَذِّبَ مَنْ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا)، فَقُلْتُ: يا رَسُولَ اللهِ أَفلاَ أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ؟، قَالَ: (لاَ تُبَشِّرْهُمْ؛ فَيَتَّكِلُوا) [رَواهُ البُخارِيُّ، وَمُسْلِمٌ، وَاللَّفْظُ لِلبُخارِيِّ].

وَالحَديثُ لَيْسَ المَقْصودُ مِنْهُ الكِتْمانُ الأَبَدِيُّ، وَإِنَّما كانَ لِزَمَنٍ مُعَيَّنٍ، بِدَليلِ أَنَّ

مُعاذًا قَدْ أَخْبَرَ بِهذا الحَديثِ -قَبْلَ مَوتِهِ (تَأَثُّمًا)- (كَما صَحَّ ذَلِكَ بِغيرِ هَذَا اللَّفْظِ)؛ لِأَنَّ عِلَّةَ عَدمِ التَّبْشيرِ هِيَ (خَشْيَةُ الاتِّكالِ)، وَإِذَا زَالَتِ العِلَّةُ؛ جَازَ التَّبْشيرُ، و(إِنَّما رَواهُ مُعاذٌ -مَعَ كَونِهِ مَنْهِيًّا عَنْهُ-؛ لِأَنَّهُ عَلِمَ مِنْهُ: أَنَّ هَذَا الإِخْبارَ يَتَغَيَّرُ بِتَغَيُّرِ الزَّمَانِ وَالأَحْوَالِ، وَالقَوْمُ كَانُوا -يَوْمَئِذٍ- حَدِيثِي العَهْدِ بِالإِسْلَامِ، لَمْ يَعْتَادوا تَكَالِيفَهُ، فَلَمَّا تَثَبَّتوا وَاستَقَاموا؛ أَخْبَرَهُم) [مِرْقاةُ المَفاتيحِ شَرْحُ مِشْكاةِ المَصابِيحِ: ١ / ٩٨].

- أَساسُ التَّوحيدِ: أَساسُهُ هُوَ كَلِمةُ التَّوحيدِ: (لَا إِلهَ إِلَّا اللهُ)، وَمَعناهَا: (لَا مَعْبودَ بِحَقٍّ إِلَّا اللهُ)، وَقَولُنَا: (بِحَقٍّ) هُوَ قَيْدٌ هامٌّ -جِدًّا-، وَلَا يَسْتَقِيمُ المَفْهومُ الصَّحِيحُ -لَهَا- إِلَّا بِهِ، وَهَذَا المَعْنَى -بِهَذَا القَيْدِ الهَامِّ- لَا يَعْلَمُهُ (كَثِيرٌ مِنَ المُسْلِمينَ)!! -يَا لِلأَسَفِ-.

فَكُلُّ مَعْبودٍ غَيرَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -أَيًّا كَانَ- هُوَ (إِلهٌ بَاطِلٌ)، وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ المُسْتَحِقُّ لِلعِبادَةِ -لَا غَيرُهُ-، قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [سُورَةُ الأَنبياءِ: ٢٥]، وَلَمَّا دَعَا النَّبِيُّ ﷺ المُشْرِكِينَ إِلَى قَولِ: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) امتَنَعوا؛ لِأَنَّهُم يَعرِفونَ حَقِيقَتَها وَمَعناهَا الَّذِي أَشَرْنا إِلَيهِ - آنِفًا -، فَحَكَى اللهُ عَزَّوَجَلَّ قَولَهُم: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [سُورَةِ ص: ٥]، فَفَهِموا أَنَّها تَعْنِي (إِبْطالَ كُلِّ أَصنامِهِم وَآلِهَتِهِم، وَحَصْرَ العِبادَةِ للهِ -وَحْدَهُ-)، مَعَ أَنَّهُم مُقِرّونَ وَمُعْتَرِفونَ بِأَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ هُوَ (الرَّازِقُ، وَالخَالِقُ، وَالمَالِكُ، وَالمُدَبِّرُ) -وَغَيْرُهَا- قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [سُورَةُ الزُّخْرُفِ: ٩]، وَقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [سُورَةُ الزُّخْرُفِ: ٨٧]، وَقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۞ فَذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [سُورَةُ يُونُس: ٣١، ٣٢].



أَهَمِّيَّةُ كَلِمَةِ التَّوحِيدِ:

١ - أَنَّها دَعْوَةُ (جميعِ الرُّسُلِ) -عَلَيْهِم الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، وَإِلَيهَا دَعَوا أقوامَهُم، قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [سُورَةُ الأَنبياءِ: ٢٥].

٢ - هِيَ (الرُّكْنُ الأَوَّلُ لِلإِسْلَامِ)، قَالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: (بُنِيَ الإِسْلَامُ على خَمْسٍ، شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسولُ اللهِ، وَإِقامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتاءِ الزَّكاةِ، وَالحَجِّ، وَصَومِ رَمَضانَ) [رَواهُ البُخاريُّ، وَمُسْلِمٌ].

٣ - أَنَّ المَرْءَ لَا يَدْخُلُ الإِسْلَامَ إِلَّا بِالنُّطْقِ بِـ(كَلِمَةِ التَّوحِيدِ)، مُعْتَقِدًا حَقِيقَتَهَا، وَعارِفًا مَعناهَا، قَالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: (أُمِرْتُ أَنْ أُقاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَمَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؛ فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي نَفْسَهُ وَمالَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ، وَحِسَابُهُ عَلى اللهِ) [مُتَّفَقٌ عَلَيهِ].

٤ - أَنَّها سَبَبٌ لِدُخولِ الجَنَّةِ -لِمَنْ عَلِمَ مَعناهَا، وَحَقَّقَ أَرْكانَها، وَعَمِلَ بِمُقْتَضاها، وَلَمْ يَرْتَكِبْ ناقِضًا مِنْ نَواقِضِهَا، وَماتَ عَلَى ذَلِكَ-، قَالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: (فَإِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، يَبْتَغِي -بِذَلِكَ- وَجْهَ اللهِ) [مُتَّفَقٌ عَلَيهِ]، وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (مَا مِنْ عَبْدٍ قَالَ لَا إِلَه إِلَّا اللهُ، ثُمَّ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ؛ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ). [رَواهُ مُسْلِمٌ].

٥ - لِأَجلِ التَّوحيدِ أَنْزَلَ اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الكُتُبَ، وَشَرَعَ اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الجِهادَ فِي سَبيلِهِ.

٦ - بِتَحقيقِ التَّوحِيدِ تَسْتَقيمُ العِبادَةُ للهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وَحْدَهُ -وَالَّتِي مِنْ أَجْلِهَا خَلَقَنَا اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ-، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورَةُ الذَّارياتِ: ٥٦]، وَاشْتُهِرَ -عَنْ غَيْرِ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ- تَفْسيرهُم لِقَولِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾-: (أَيْ: لِيُوَحِّدونِ).

مَفْهُومُ العِبَادَةِ:

و(العِبَادَةُ: هِيَ اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ مِنَ الأَقْوَالِ، وَالأَعْمَالِ -البَاطِنَةِ، وَالظَّاهِرَةِ-) [العُبُودِيَّةُ -شَيْخُ الإِسْلَامِ (ابْنِ تَيْمِيَّةَ) رَحِمَهُ اللَّهُ / ١٩]، وَقَالَ

-كَذَلِكَ-: (وَالعِبَادَةُ أَصْلُ مَعْنَاهَا الذُّلُّ -أَيْضًا-، يُقَالُ: طَرِيقٌ مُعَبَّدٌ؛ إذَا كَانَ مُذَلَّلًا قَدْ وَطِئَتْهُ الأَقْدَامُ. لَكِنَّ العِبَادَةَ -المَأْمُورَ بِهَا- تَتَضَمَّنُ مَعْنَى الذُّلِّ، وَمَعْنَى الحُبِّ، فَهِيَ تَتَضَمَّنُ غَايَةَ الذُّلِّ للهِ -تَعَالَى-، بِغَايَةِ المَحَبَّةِ لَهُ) [العُبُودِيَّةُ شَيْخُ الإِسْلَامِ (ابْنُ تَيْمِيَّةَ) رَحِمَهُ اللَّهُ / ٢٤].

و(العِبَادَةُ) لَا يَقْبَلُهَا اللهُ عَزَّوَجَلَّ إِلَّا بِشَرْطَيْنِ اثْنَيْنِ، إِذَا تَخَلَّفَ أَحَدُهُمَا؛ لَمْ تُقْبَلْ؛ وَهُمَا:

١ - المُتَابَعَةُ: وَهُوَ أَنْ يَكُونَ (العَمَلُ الصَّالِحُ) مُوَافِقًا لِأَمْرِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَلِأَمْرِ رَسُولِهِ ﷺ، وَعَلَى مُرَادِهِمَا، بِثُبُوتِ (الأَصْلِ، وَالوَصْفِ) - مُجْتَمِعَيْنِ -.

٢ - الإِخْلَاصُ: وَهُوَ أَنْ يَبْتَغِيَ المُسْلِمُ - بِـ (عَمَلِهِ الصَّالِحِ) - وَجْهَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَأَنْ لَا يَبْتَغِيَ - بِهِ - وُجُوهَ النَّاسِ؛ فَيَكُونُ (مُرَائِيًا).

وَدَلِيلُ كِلَا الشَّرْطَيْنِ - أَعْلَاهُ - هُوَ قَوْلُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [سُورَةُ الكَهْفِ: ١١٠].

قَالَ الفُضَيْلُ بنُ عِيَاضٍ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [سُورَةُ هُودٍ: ٧، وَسُورَةُ المُلْكِ: ٢]: (أَخْلَصُهُ وَأَصْوَبُهُ [قَالُوا: يَا أَبَا عَلِيّ: مَا أَخْلَصُهُ وَأَصْوَبُهُ؟]، قَالَ: فَإِنَّ العَمَلَ إِذَا كَانَ خَالِصًا، وَلَمْ يَكُنْ صَوَابًا؛ لَمْ يُقْبَلْ، وَإِذَا كَانَ صَوَابًا، وَلَمْ يَكُنْ خَالِصًا؛ لَمْ يُقْبَلْ، حَتَّى يَكُونَ خَالِصًا صَوَابًا، وَالخَالِصُ: أَنْ يَكُونَ للهِ، وَالصَّوَابُ: أَنْ يَكُونَ عَلَى السُّنَّةِ) [مَجْمُوعُ الفَتَاوَى لِشَيْخِ الإِسْلَامِ ابنِ تَيْمِيَّةَ (١٨ / ٢٥٠)].

رُكنا كَلِمَةِ التَّوحِيدِ:

كَلِمَةُ التَّوحِيدِ لَهَا رُكنانِ: (نَفْيٌ، وَإِثْبَاتٌ)، وَلَا يَسْتَقِيمُ مَعناهَا إِلَّا بِهِما، (لَا إِلَهَ = نَفْيٌ)، (إِلَّا اللهُ = إِثْبَاتٌ)، فَنَنْفِي (الأُلُوهِيَّةَ) عَمَّا سِوى اللهِ عَزَّوَجَلَّ ونُثْبِتُها لَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَالنَّفْيُ -وَحْدَهُ- لَيسَ (تَوحِيدًا)، وَالإِثْبَاتُ -وَحْدَهُ- لَيسَ (تَوحِيدًا)، قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سُورَةُ الحَجِّ: ٦٢].



أنواعُ التَّوحِيدِ:

قَالَ الشَّيْخُ (ابنُ عُثَيْمينَ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (واعْلَمْ: أَنَّ العُلَمَاءَ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ قَسَّموا التَّوحِيدَ إلى ثَلَاثَةِ أَقْسامٍ:

١ - تَوحِيدُ الرُّبوبِيَّةِ.

٢ - توحِيدُ الأُلوهِيَّةِ.

٣ - تَوحِيدُ الأَسْماءِ وَالصِّفَاتِ.

وَقَسَّموها -هَذَا التَّقْسِيمَ- بِنَاءً عَلَى التَّتَبُّعِ وَالاسْتِقْرَاءِ، وَاسْتِئْنَاسًا بِقَولِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [سُورَةُ مَريَمَ: ٦٥]، فَإِنَّ الآيَةَ الكَرِيمَةَ تَضَمَّنَتْ أَنْواعَ التَّوحِيدِ الثَّلَاثَةَ:

فَقَولُهُ -تَعَالَى-: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ هَذا (تَوحِيدُ الرُّبوبِيَّةِ).

وَقَولُهُ -تَعَالَى-: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ هَذا (تَوحِيدُ الأُلوهِيَّةِ).

وَقَولُهُ -تَعَالَى-: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ هَذا فِي (الأَسماءِ وَالصِّفَاتِ)؛ لِأَنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ أَيْ: لا تَعْلَمُ لَهُ نَظِيرًا، وَمُساوِيًا لَهُ فِي أَسْمائِهِ وَصِفاتِهِ) [شَرْحُ كِتابِ (عَقِيدَةُ أَهلِ السُّنَّةِ وَالجَماعَةِ) / ١٩].

وَلِبَيانِ هَذِهِ الأَقْسامِ الثَّلَاثَةِ؛ نَقولُ:

الأَوَّلُ: (تَوحِيدُ الرُّبوبِيَّةِ)، وَهُوَ تَوحِيدُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ بِأَفْعَالِهِ، أَي: (إِفْرَادُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ بِالخَلْقِ، وَالمُلْكِ، وَالرِّزْقِ، وَالتَّدْبِيرِ، وَالأَمْرِ) -وَغَيرِها مِمَّا يَخْتَصُّ بِأَفْعَالِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-، قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [سُورَةُ الأَعرَافِ: ٥٤]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ [سُورَةُ فاطِر: ١٣]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [سُورَةُ سَبَأٍ: ٢٤]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ [سُورَةُ السَّجْدَةِ: ٥]، وَهُوَ القِسْمُ الَّذِي أَقَرَّ بِهِ المُشْرِكونَ، وَمَعَ هَذَا الإِقْرارِ (لَمْ يَكونوا مُسلِمينَ!)؛ لأَنَّهُم (صَرَفوا العِبادَاتِ لِغَيرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ).

قَالَ الشَّيْخُ (ابْنُ عُثَيمينَ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أَمَّا تَوحِيدُ الرُّبوبِيَّةِ: فَلَمْ يُنْكِرْهُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ،

فَـكُلُّ مَنْ أَقَرَّ بِأَنَّ هَـذِهِ الخَلِيقَةَ لَـهَا خَالِقٌ؛ فَإِنَّـهُ لَـمْ يُنْكِـرْهُ، إِلَّا مُكَابَـرَةً، وَالمُكَابَرَةُ لَيْـسَ فِيْهَا فَائِـدَةٌ) [شَـرْحُ كِتابِ (عَقِيـدَةُ أَهلِ السُّنَّةِ وَالجَماعَةِ) / ٢٣].

الثَّاني: (تَوحِيدُ الأُلوهِيَّةِ)، وَهُوَ: (إِفْرادُ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ -وَحْـدَهُ- بِالعِبـادَةِ)، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿اعْبُـدُوا اللهَ مَـا لَكُـم مِـنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [سورَةُ الأَعرَافِ:٥٩].

فَـكُلُّ عِبادَةٍ وَرَدَتْ فِي الشَّـرْعِ، لَا يَصِحُّ صَرْفُهَـا لِغَيْـرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ -أَيًّـا كانَ-، وَمَـنْ صَرَفَهَـا لِغَيـرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ فَقَدْ أَشْـرَكَ، كَمَنْ يَحلِفُ بِغَيرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَيَنْذُرُ لِغَيرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَيَسْتَعِينُ بِغَيرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَيَسْتَغيثُ بِغَيرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ -وَغَيرُ ذَلِكَ-، وَهَذا القِسْمُ الَّذِي ضَلَّ بِهِ المُشْرِكونَ -فِي كُلِّ زَمانٍ، وَمَكانٍ-، مَعَ إِقْرارِهِم بِـ(تَوحِيدِ الرُّبوبِيَّةِ)!!.

قَـالَ الشَّـيْخُ (ابْـنُ عُثَيمِيـنَ) رَحِمَهُٱللَّهُ: (وَأَمَّـا تَوحِيـدُ الأُلوهِيَّة: فَقَـدْ أَنْكَرَهُ أُناسٌ أَذْكِيـاءُ، عِنْدَهُـم عَقْـلٌ إِدْرَاكِـيٌّ لَا عَقْـلٌ إِرْشَادِيٌّ، مِثْلُ المُشْرِكِينَ -كُفَّارِ قُرَيْشٍ-، أَنْكَـروا تَوْحِيـدَ الأُلوهِيَّـةِ -مَـعَ إِقْرارِهِم بِتَوحِيـدِ الرُّبوبِيَّةِ إِقْرَارًا كامِـلًا-، وَجَعلوا مَـعَ اللهِ -تَعَالَـى- إِلَهًا آخَـرَ) [شَـرْحُ كِتابِ (عَقِيدَةُ أَهلِ السُّنَّةِ وَالجَماعَةِ) / ٢٤].

الثَّالِثُ: (تَوحِيدُ الأَسْماءِ وَالصِّفَاتِ)، وَهُوَ: (إِفْرادُ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بِما أَثبَتَهُ لِنَفْسِهِ مِنَ الأَسْـمَاءِ الحُسْـنَى، وَالصِّفَاتِ العُلْيَا، مِـنْ غَيرِ تَعْطِيلٍ، وَلَا تَكْيِيـفٍ، وَلَا تَمثِيلٍ، وَلا تَأوِيلٍ، وَلَا تَحْرِيفٍ)، وَأَنهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لَا يُشَابِهُهُ -فِي أَسْمَائِهِ، وَصِفَاتِهِ- أَحَدٌ مِنْ خَلْقِهِ، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَـيْءٌ وَهُوَ السَّـمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [سـورَةُ الشُّورى: ١١]، وَأَنَّ أَسْـمَاءَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ -كُلَّهَـا- حُسْـنَى، وَأَنَّ صِفَاتِـهُ عَزَّوَجَلَّ -كُلَّهَا- عُلْيَـا. قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْـمَاءُ الْحُسْـنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [سُورَةُ الأَعرَافِ: ١٨٠].

قَـالَ الشَّـيْخُ (ابْـنُ عُثَيمِيـنَ) رَحِمَهُٱللَّهُ: (وَأَمَّـا تَوحِيـدُ الأَسْـمَاءِ وَالصِّفَـاتِ: فَقَدْ أَقَـرَّهُ المُسْـلِمونَ -كُلُّهُـمْ-، لَكِـنْ أَنْكَرَهُ بَعْـضُ طَوَائِـفٍ مِـنَ المُسْـلِمينَ -يَعْنِـي مِمَّـنْ يُقِـرُّونَ بِتَوحِيدِ الأُلوهِيَّـةِ، وَتَوحِيدِ الرُّبوبِيَّـةِ-؛ فَأَنْكَـروا شَـيْئًا مِـنْ تَوحِيـدِ الأَسْـمَاءِ وَالصِّفَـاتِ؛ فَمِنْهُـمْ مَـنْ عَطَّلَ، وَمِنْهُمْ مَنْ مَثَّلَ.



وَلِهَذَا: انْقَسَمَ النَّاسُ -فِي بَابِ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ- إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ:

الأَوَّلُ: مُمَثِّلَةٌ، وَالثَّانِي: مُعَطِّلَةٌ، وَالثَّالِثُ: أَهْلُ حَدِيثٍ وَسُنَّةٍ، مُثْبِتُونَ عَلَى وَجْهٍ لَائِقٍ بِاللهِ) [شَرْحُ كِتَابِ (عَقِيدَةُ أَهلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ) / ٢٤].

شُروطُ كَلِمَةِ التَّوحيدِ (لَا إِلهَ إِلَّا اللهُ)، وَأَدِلَّتُهَا:

١ - العِلْمُ: وَهُوَ العِلْمُ المُنَافِي لِلْجَهْلِ، بِأَنْ يُعْلَمَ مَعنَاهَا -(نَفيًا، وَإِثْبَاتًا)-.

الدَّلِيلُ مِنَ (القُرآنِ): هُوَ قَولُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ﴾ [سُورَةُ مُحَمَّدٍ: ١٩].

وَالدَّلِيلُ مِنَ (السُّنَّةِ): هُوَ قَولُ النَّبِيِّ ﷺ: (مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلهَ إِلَّا اللهُ؛ دَخَلَ الجَنَّةَ) [رَواهُ مُسْلِمٌ].

٢ - اليَقِينُ: وَهُوَ اليَقِينُ المُنَافِي لِلشَّكِّ، فَتَطْمَئِنُّ النَّفْسُ لَهَا، وَلِمَدْلُولِهَا، يَقِينًا جَازِمًا.

الدَّلِيلُ مِنَ (القُرآنِ): هُوَ قَولُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [سُورَةُ الحُجُرَاتِ: ١٥].

وَالدَّلِيلُ مِنَ (السُّنَّةِ): هُوَ قَولُ النَّبِيِّ ﷺ: (أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، لَا يَلْقَى اللهَ بِهِمَا عَبْدٌ غَيْرَ شَاكٍّ فِيهِمَا؛ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ) [رَواهُ مُسْلِمٌ].

٣- الإِخْلَاصُ: وَهُوَ الإِخْلَاصُ المُنَافِي لِلرِّيَاءِ، بِتَنْقِيَةِ العَمَلِ الصَّالِحِ مِنْ دَخَنِ الشِّرْكِ، وَأَنْ لَا يَبْتَغِيَ بِذَلِكَ إِلَّا وَجْهَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

الدَّلِيلُ مِنَ (القُرآنِ): هُوَ قَولُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [سُورَةُ البَيِّنَةِ: ٥].

وَالدَّلِيلُ مِنَ (السُّنَّةِ): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ: مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ -يَوْمَ القِيَامَةِ-؟، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (لَقَدْ ظَنَنْتُ -يَا أَبَا هُرَيْرَةَ- أَنْ لَا يَسْأَلَنِي -عَنْ هَذَا الحَدِيثِ- أَحَدٌ أَوَّلَ مِنْكَ؛ لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الحَدِيثِ: أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي -يَوْمَ القِيَامَةِ- مَنْ قَالَ لَا إِلهَ إِلَّا اللهُ خَالِصًا

مِنْ قَلْبِهِ، أَوْ نَفْسِهِ) [رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ].

٤ - الصِّدْقُ: وَهُوَ الصِّدْقُ الْمُنَافِي لِلكَذِبِ، وَهُوَ أَنْ يَقُولَهَا صَادِقًا مِنْ قَلْبِهِ، يُوَاطِئُ قَلْبُهُ لِسَانَهُ.

الدَّلِيلُ مِنَ (الْقُرآنِ): هُوَ قَولُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [سُورَةُ العَنكَبوتِ ١ - ٣].

وَالدَّلِيلُ مِنَ (السُّنَّةِ): هُوَ قَولُ النَّبِيِّ ﷺ: (مَا مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ -صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ-؛ إِلَّا حَرَّمَهُ اللهُ عَلَى النَّارِ) [رَوَاهُ الشَّيْخَانِ].

٥ - المَحَبَّةُ: وَهِيَ المَحَبَّةُ المُنَافِيَةُ لِلْبُغْضِ، وَهُوَ أَنْ يُحِبَّ هَذِهِ الكَلِمَةَ، وَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ، وَيُحِبَّ أَهْلَهَا.

الدَّلِيلُ مِنَ (القُرآنِ): هُوَ قَولُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلهِ﴾ [سُورَةُ البَقَرَةِ: ١٦٥].

وَالدَّلِيلُ مِنَ (السُّنَّةِ): هُوَ قَولُ النَّبِيِّ ﷺ: (ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ) [رَوَاهُ الشَّيْخَانِ].

٦ - الانْقِيَادُ: وَهُوَ الانْقِيَادُ المُنَافِي لِلْتَّرْكِ، بِأَنْ يَنْقَادَ لِشَرْعِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَيُسْلِمَ وَجْهَهُ للهِ عَزَّوَجَلَّ، وَيُذْعِنَ لِحُكْمِهِ وَأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ.

الدَّلِيلُ مِنَ (القُرآنِ): هُوَ قَولُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ [سُورَةُ الزُّمَرِ: ٥٤].

وَالدَّلِيلُ مِنَ (السُّنَّةِ): عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿.. وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ..﴾ [سُورَةُ البَقَرَةِ: ٢٨٤]، قَالَ: دَخَلَ قُلُوبَهُمْ مِنْهَا شَيْءٌ، لَمْ يَدْخُلْ قُلُوبَهُمْ مِنْ شَيْءٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (قُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَسَلَّمْنَا)، قَالَ: فَأَلْقَى اللهُ الإِيمَانَ فِي قُلُوبِهِم؛ فَأَنْزَلَ اللهُ -تَعَالَى-: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا...﴾ [سُورَةُ البَقَرَةِ: ٢٨٦]؛ قَالَ: قَدْ



فَعلْتُ، ﴿... رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا...﴾ [سُورَةُ البَقَرَةِ: ٢٨٦]؛ قَالَ: قَدْ فَعلْتُ، ﴿... وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا...﴾ [سُورَةُ البَقَرَةِ: ٢٨٦]؛ قَالَ: قَدْ فَعلْتُ. [رَواهُ مُسْلِمٌ].

٧ - القَبُولُ: وَهُوَ القَبولُ المُنَافِي لِلْرَّدِّ، فيَقْبَلُ هَذِهِ الكَلِمَةَ -(اعْتِقَادًا، وَقَوْلًا، وَعَمَلًا)-، وَلَا يَرُدُّهَا -أَوْ شَيْئًا مِنْ مُقْتَضَيَاتِهَا- (كِبْرًا).

الدَّلِيلُ مِنَ (القُرآنِ): هُوَ قَولُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ -فِيمَنْ رَدَّهَا وَلَمْ يَقبَلْهَا-: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۞ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ [سُورَةُ الصَّافَّاتِ: ٣٥، ٣٦].

وَالدَّلِيلُ مِنَ (السُّنَّةِ): هُوَ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: (مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ -مِنَ الهُدَى، وَالعِلْمِ- كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ المَاءَ؛ فَأَنْبَتَتْ الكَلَأَ، وَالعُشْبَ الكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ المَاءَ؛ فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا، وَسَقَوا، وَزَرَعُوا، وَأَصَابَ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى؛ إِنَّمَا هِيَ قِيْعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً، وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِيْنِ اللهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ؛ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ) [رَواهُ الشَّيْخَانِ].

قَالَ الشَّيْخُ (حَافِظُ بنُ أَحْمَدَ الحَكَمِيُّ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي مَنْظُومَتِهِ (سُلَّمِ الوصولِ إِلَى مَبَاحِثِ عِلْمِ الأُصولِ):

وَبِشُرُوطٍ سَبْعَةٍ قَدْ قُيِّدَتْ ... وَفِي نُصُوصِ الوَحْيِ حَقًّا وَرَدَتْ

فَإِنَّهُ لَمْ يَنْتَفِعْ قَائِلُهَا ... بِالنُّطْقِ إِلَّا حَيْثُ يَسْتَكْمِلُهَا

العِلْمُ، وَاليَقِيْنُ، وَالقَبُولُ ... وَالانْقِيَادُ فَادْرِ مَا أَقُولُ

وَالصِّدْقُ، وَالإِخْلَاصُ، وَالمَحَبَّه ... وَفَّقَكَ اللهُ لِمَا أَحَبَّه

وَمِنْ لَوَازِمِ كَلِمَةِ التَّوحِيْدِ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ):

١ - البَرَاءَةُ مِنَ (الشِّرْكِ) -بِكُلِّ أَشْكَالِهِ، وَصُوَرِهِ-:

الدَّلِيلُ مِنَ (القُرآنِ): قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ عَلَى لِسَانِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لِقَوْمِهِ: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [سُورَةُ الأَنْعَامِ: ٧٨].

وَالدَّلِيلُ مِنَ (السُّنَّةِ): هُوَ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: (مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مَنْ دُونِ اللهِ؛ حَرُمَ مَالُهُ، وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ) [رَوَاهُ مُسْلِمٌ].

٢ - البَرَاءَةُ مِنَ (أَهْلِ الشِّرْكِ) -بِاعْتِقَادِ بُطْلَانِ دِيْنِهِم-:

الدَّلِيلُ مِنَ (القُرآنِ): قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ﴾ [سُورَةُ المُمْتَحَنَةِ: ٤].

وَالدَّلِيلُ مِنَ (السُّنَّةِ): هُوَ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: (أَوْثَقُ عُرَى الإِيمَانِ: المُوَالَاةُ فِي اللهِ، وَالمُعَادَاةُ فِي اللهِ، وَالحُبُّ فِي اللهِ، وَالبُغْضُ فِي اللهِ عَزَّوَجَلَّ) [صَحِيحُ الجَامِعِ: ٢٥٣٩].

ثانيًا: الشِّرْكُ

هُوَ: (أَنْ يَجْعَلَ الإِنْسَانُ للهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَهُ).

والـ (نِدُّ) هو (النَّظِيرُ)، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ﴾ [سُورَةُ البَقَرَةِ: ١٦٥]، وعَنْ عَمْرِو بْنِ شُرَحْبِيلَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ مَسْعُودٍ قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ؟، قَالَ: (أَنْ تَجْعَلَ للهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ). قُلْتُ: إِنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ، قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟، قَالَ: (وَأَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ تَخَافُ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ). قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟، قَالَ: (أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ) [رَوَاهُ البُخَارِيُّ، وَمُسْلِمٌ -وَغَيرُهُمَا-].

وَهُوَ أَكْبَرُ الكَبَائِرِ، فَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: (أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ)؟، قُلْنَا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: (الإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ، وَكَانَ مُتَّكِئًا فَجَلَسَ فَقَالَ: (أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ، أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ)، فَمَا زَالَ يَقُولُهَا، حَتَّى قُلْتُ: لَا يَسْكُتُ. [رَوَاهُ البُخَارِيُّ، وَمُسْلِمٌ، وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ].

- وَالشِّرْكُ: (أَنْ يَصْرِفَ الإِنْسَانُ أَيَّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ العِبَادَةِ لِغَيرِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى)، كَـ (الذَّبْحِ، وَالنَّذْرِ، وَالقَسَمِ، وَالاسْتِعَانَةِ، وَالاسْتِغَاثَةِ، وَالاسْتِعَاذَةِ، وَالخَوْفِ،

وَالرَّجَاءِ، وَالخَشْيَةِ) -وَغيرِهَا-، وَمَن صَرَفَ شَيْئًا مِنَ العِبَادَةِ لِغيرِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فَقَدْ وَقَعَ فِي (الشِّرْكِ، وَالكُفْرِ)، قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [سُورَةُ المُؤمِنونَ: ١١٧].

خَطَرُ الشِّرْكِ:

١- الشِّرْكُ هُوَ الذَّنْبُ الوَحِيدُ الَّذِي لَا يَغفِرُهُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَا لَمْ يَتُبْ -مِنْهُ- صَاحِبُهُ قَبْلَ موتِهِ، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [سورَةُ النِّساءِ:٤٨]، وَقَدْ أَمرَ (كُلُّ الرُّسُلِ) أَقْوامَهُم بِـ(التَّوحِيدِ)، وَحَذَّروهُمْ مِنَ (الشِّرْكِ)، وَكَانَت دَعوتُهُم: ﴿اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾.

٢- سَمَّى اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الشِّرْكَ (ظُلْمًا)؛ فَقَالَ عَلى لِسَانِ العَبْدِ الصَّالِحِ (لُقْمَانَ) -وَهُوَ يَعِظُ ابْنَهُ-: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَابُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [سورَةُ لُقمانَ:١٣]، عَنْ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [سُورَةُ الأَنْعَامِ: ٨٢]، شَقَّ -ذَلِكَ- عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، وَقَالُوا: أَيُّنَا لَمْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ؟!، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (لَيْسَ كَمَا تَظُنُّونَ؛ إِنَّمَا هُوَ كَمَا قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ: ﴿يَابُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [سورَةُ لُقمانَ:١٣]) [رَواهُ البُخَارِيُّ].

قَالَ الشَّيْخُ (عَبْدُ الرَّحمَنِ السِّعْدِيّ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي تَفْسِيْرِ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾: (وَوَجْهُ كَوْنِهِ عَظِيْمًا: أَنَّهُ لَا أَفْظَعَ وَلَا أَبْشَعَ مِمَّنْ سَوَّى المَخْلوقَ مِنْ تُرَابٍ، بِمَالِكِ الرِّقَابِ، وَسَوَّى الَّذِي لَا يَمْلِكُ مِنَ الأَمْرِ شَيْئًا، بِمَالِكِ الأَمْرِ كُلِّهِ، وَسَوَّى النَّاقِصَ الفَقِيْرَ -مِنْ جَمِيعِ الوُجوهِ!-، بِالرَّبِّ الكَامِلِ الغَنِيِّ -مِنْ جَمِيعِ الوُجوهِ-، وَسَوَّى مَنْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْعِمَ بِمِثْقَالِ ذَرَّةٍ مِنَ النِّعَمِ بِالَّذِي مَا بِالخَلْقِ مِنْ نِعْمَةٍ -فِي دِيْنِهِم، وَدُنْيَاهُم، وَأُخْرَاهُم، وَقُلُوبِهُم، وَأَبْدَانِهُم- إِلَّا مِنْهُ، وَلَا يَصْرِفُ السُّوْءَ إِلَّا هُوَ؛ فَهَلْ أَعْظَمُ مِنْ هَذَا الظُّلْمِ شَيْءٌ؟!، وَهَلْ أَعْظَمُ ظُلْمًا مِمَّنْ خَلَقَهُ اللهُ لِعِبَادَتِهِ وَتَوْحِيدِهِ، فَذَهَبَ -بِنَفْسِهِ الشَّرِيْفَةِ- فَجَعَلَهَا فِي أَخَسِّ المَرَاتِبِ؛ جَعَلَهَا عَابِدَةً لِمَنْ لَا يَسْوَى شَيْئًا؛ فَظَلَمَ نَفْسَهُ ظُلْمًا كَبِيْرًا).

٣- الشِّـرْكُ مُحْبِطٌ لِلعَمَلِ، وَنَاقِضٌ لَهُ، قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَشْـرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سـورَةُ الأَنعامِ: ٨٨]، وَقَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِيـنَ مِنْ قَبْلِـكَ لَئِـنْ أَشْـرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِـرِينَ ۞ بَلِ اللهَ فَاعْبُـدْ وَكُـنْ مِنَ الشَّـاكِرِينَ﴾ [سُـورَةُ الزُّمَرِ: ٦٥،٦٦].

٤- المُشْـرِكُ مَصيرُهُ النَّـارُ -إِنْ مَاتَ عَلَى شِـرْكِهِ، وَلَـمْ يَتُبْ مِنهُ-، قَالَ رَسـولُ اللهِ ﷺ: (مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعو مِنْ دُونِ اللهِ نِدًّا دَخَلَ النَّارَ) [رَواهُ البُخارِيّ].

إِشَارَتَانِ هَامَّتَانِ:

١- الشِّـرْكُ لَـمْ يَنْتَـهِ زَمَانُـهُ، وَلَـمْ تَنْتَـهِ صُـوَرُهُ؛ فَهُـوَ مَوجـودٌ إِلـى قِيَـام السَّاعَةِ!!، وَلَا يَقْتَصِرُ عَلَى عِبادَةِ الأَصْنَام -فَحَسْبُ-؛ فَإِنَّ هُنَاكَ مَنْ يَصرِفُ (أَنْوَاعًا مِـنَ العِبادَاتِ) لِأُنَـاسٍ أَمْـوَاتٍ صَالِحِينَ -وَغَيْرِ صَالِحِينَ!!-، لَا يَمْلِكونَ لِأَنفُسِهِم -وَلَا لِغَيرِهِـم- نَفْعًـا وَلَا ضَـرًّا، قَـالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِيـنَ تَدْعُـونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [سورَةُ الأَعرافِ: ١٩٤].

٢- أَنَّ (مُشْـرِكِي الأَصْنَـامِ -فِي الزَّمَنِ الأَوَّلِ-) كَانُـوا يَلْجَـأونَ إِلَيْهَـا بِالدُّعَـاءِ، وَطَلَبِ الحَاجَاتِ فِي (السَّرَّاءِ) -فَقَطْ-، وَإِذَا مَسَّـهُم الضُّـرُّ؛ لَجَـأوا إِلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ -وَحْـدَهُ-، قـال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَـإِذَا رَكِبُـوا فِـي الْفُلْـكِ دَعَـوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ۞ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَـوْفَ يَعْلَمُـونَ﴾ [سُـورَةُ العَنْكَبـوتِ: ٦٥، ٦٦]، أَمَّـا (مُشْرِكو هَذِهِ الأَزْمِنَةِ)؛ فَإِنَّهُم يَلْجَأونَ إِلى قُبُورِ (الأَمواتِ!) فِي (السَّـرَّاءِ، وَالضَّرَّاءِ) -مَعًا-!!.

خِتَامًـا: أَسْـأَلُ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يَسْـتَعْمِلَنَا فِـي طَاعَتِـهِ، وَأَنْ يُحْيِينَـا عَلَى (التَّوْحِيدِ، وَالسُّـنَّةِ)، وَأَنْ يَقْبِضَنَا عَلَيْهِمَا، لَا مُغَيِّرِيـنَ وَلَا مُبَدِّلِيـنَ، حَتَّـى نَلْقَاهُ وَهُوَ رَاضٍ عَنَّا، وَأَنْ يَكْتُبَ لَنَا الحُسْنَى وَزِيَادَة، بِـلَا سَـابِقَةِ عَـذَابٍ أَوْ حِسَـابٍ.. اللَّهُـمَّ آمِينَ... وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.



العلّامة العمرانيّ بَقيّة الفضَلاء

القاضي محمد بن إسماعيل العمراني

خالد بريه

تهاوتِ البلاد، ووحده العمرانيّ بقيَ منارةً شامخة.. كان مَبعثًا للحياة والطمأنينة في عَالَمٍ رديء، شوّهته يد الحروب، وحده بقيَ امتدادًا حيًّا للتّاريخِ والقِيَم والعِلْم.

اختلفَ النَّاسُ في كلِّ شيء، لكنهم أجمعوا على إمامته، وجلاله، ارتضوه عالمًا عابرًا لكلِّ التصنيفات والتحيّزات الضيقة، والجماعات المغلَقة، وباتَ العَلَمُ الّذي رأىٰ الناسُ فيه هبةَ الخَلاص، وتجسيدًا لحقيقةِ العالِم في زمنٍ تعرّت فيه الوجوه!

أعادَ إلى الأذهانِ سيرة علماء القُطْرِ اليماني، وكان ممثِّلًا شرعيًّا لأساتذته الّذين تتلمذ على كتبهم، وأخذَ من أنفاسِ أشياخهِ أنفاس مَن سبقوه، لقد سدَّ الفجوة الممتدّة، وكان خيطًا ناظمًا منذ حقبة ابن الوزير والشوكانيّ وابن الأمير، وبِرَحيله طُويَت صفحةٌ من العِلْم والتَّاريخ والذَّاكرة!

من نِعَم الله أنّي زُرته مرارًا، وفي المرّةِ الأولى الّتي قابلتُه فيها، اكتحلتْ عيني برؤيته، ثم وفِّقتُ في الحصولِ على إجازة عامةٍ منه، تجعلكَ في سربِ مَن الْتقطوا الضوءَ مِن يَديه، كان بابه مفتوحًا للنَّاس من

كلِّ مكان، لا يـردُّ أحدًا، ويكتبُ بكلّ حُبٍّ مقدمة لكلِّ طالب يأمل الوصل به، وشرَف الانتمـاء إليه.. كانـت مقدماته عقـدًا يزيّن به الكاتِب كتابَه باسْـمِ علامة اليمن ودُرّتها وقاضيها.

لـم يكن مجرّدَ عالمٍ مـن علماءِ الدِّين، بـل كان أكبر من ذلـك، ما جُمعَ لـه تفرّقَ في غيـره، علَّـمَ، ونصحَ، وأفتـى، ومارسَ السياسـة بطريقتهِ الخاصّـة، واتخذَ موقفًا ارتضاهُ ووفَّقه الإلهُ إليه، عفَّ لسانه، وكفَّ يده، ولـم يطمع بمغنَم، وقفَ ثابتًا في وجه الظلام.. ولم يكن مطيةً لظالِم، ولا جسرًا يعبر الظلمُ من خلاله.. أحاطته عناية الإله إلى أن قبضَه إليه في درّةِ الأيام وأعظمها!

اهتـزّت صـورة العالِم كثيـرًا في عِقدنا الأخيـر، ووحـده علاّمـة اليمـن ومفتيها ازدادَ حبًـا ومكانة، في قلوبِ كل اليمنيين، وطلاب العلْم في كلِّ المَعمورة..!

كعبـة العلـم الّتي طـافَ حولَها طلاب المعرفـةِ عقـودًا، وجهـه يحكـي تاريـخ الأمجـاد والعلـم وأهلـه، وسِـنِي عمـره تحوّلت إلـى مفخـرةٍ نباهي بهـا، وبموته أُغلـق بـابٌ مـن أبـوابِ العلْم والبَسـاطة والجَمال نأملُ أن يُفتحَ في يومٍ ما.

الحـزنُ يخيّـمُ على كل محـبٍّ للعلم، برحيـل علامـة اليمـن ودرّتهـا وقاضيهـا الأجـلّ، العَلَم الشـامخ، والطـود الباذخ، والقمة السامقة، والشعلة الوقادة، والهمة العاليـة، عَلـمُ الفقهـاء، وبقيـة الفضلاء، الفقيـه، اللّغوي، المحقِّق، شـيخ القضاة، وإمـام الدعـاة، شـيخ الإسـلام القاضـي الإمـام وجيـه الديـن أبـو عبـد الرحمـن محمد بن إسـماعيل بن محمد العمرانيّ.. طيبَ الله ثراه ورضي عنه.

وداعًا يا بقية الفضلاء.







نبذة مختصرة عن سيرة شيخ مشايخ قراء العراق: عبد اللطيف الصوفي

بقلم: مزاحم إدريس الحمداني

هـذه نبـذة مختصـرة عن سـيرة العلامة المربي شيخ مشـايخ قراء العراق والرئيس السـابق لجمعية القـراء والمجودين العراقيين، بركة هذا الزمان، سـراج القراء، سـماحة الشـيخ: عبـد اللطيـف بـن خليل خضر الصوفي (رعاه الله).

هـو مـن مواليـد (١٩٣٢م)، ومحـل ولادته بالدار التي هـي مِلك أبيه رحمة الله تعالى عليه، في السـاحل الأيمـن من مدينة الموصل التي يقسـمها نهر دجلة الخير إلى الأيمـن الـذي فيه ولادتـه، وإلى السـاحل الأيسـر الـذي يقضي فيه أكثـر أيامه في بقية حياته. إذن هـو من محافظة نينوى، مدينة الموصل في محلـة (عبد خوب) أي: محلة العبد الصالح.

اعتنى والده بتربيته وتعليمه، وأَخذهُ إلى الكُتّاب في صِغر سنه (أي: الملا، وهو رجل علم في الشريعة)، وبقي يدرس في الكتاتيب حتى بلغ السادسة من العمر في هذه المدينة الجميلة، فتعلم فيها، وبآداب أهلها تأدب.

فتربى في حِجر والديه الصالحين القانتين، فـكان لهما الفضـل في الاعتناء التـام بتربيته وتهذيبه وإصلاح شـؤونه، فكانـت أفعالهما وأخلاقهما كلها دروسًـا عملية في الاستقامة والطاعة لله التي تنتفع بها العائلة كلها، ولهذا لُقِّبَت عائلتُه الكريمة بـ (بيت الصوفي).

وبعدما بلغ السادسة من عمره دخل مدرسة أبي تمام الابتدائية تلميذًا في الصف الأول الابتدائي، ولكنه مرض، وبعد مراجعته للطبابة المدرسية، وتلقي بعض العلاجات لم يتعافَ، وبقي مريضًا فترة ليست بالقصيرة، وعلى إثره اعتُبرت له سنة ترك للدراسة.

وفي السابعة من عمره ذهب إلى مدرسة الأحداث الابتدائية وسجل فيها اسمه، إلا أنه مرض ثانية، وبنفس أعراض المرض السابق، واضطر إلى ترك الدراسة مرةً أخرى لأسباب صحية.

أما في الثامنة من عمره فقد سجل في مدرسة القحطانية الابتدائية للبنين، وبفضل الله تعالى واصل دراسته فيها إلى أن حصل على شهادة الدراسة الابتدائية للعام الدراسي (١٩٤٧م- ١٩٤٨م).

ثم التحق بالدراسة في متوسطة الحدباء للبنين، وبعد دوامه لفترة قصيرة، ورَدَ كتاب من مديرية أوقاف نينوى، يحث مَن له الرغبة في العلوم الشرعية أن يلتحق بالمتوسطة الفيصلية الدينية؛ فأخذ موافقة والده آنذاك، وسحب أوراق قبوله من متوسطة الحدباء للبنين، وقدمها إلى المتوسطة الفيصلية الدينية التابعة لمديرية الأوقاف العامة، للسنة الدراسية (١٩٤٨م- ١٩٤٩م)، وكان المدير والهيئة التدريسية شيوخًا من كبار علماء الموصل حينها -رحمهم الله تعالى-.

وأثناء دراسته تعرّف إلى العلامة المرحوم محمد صالح ابن الشيخ إسماعيل الجوادي رَحِمَهُمَاٱللَّهُ رئيس مشيخة العراق في علم القراءات للقرآن الكريم في الخمسينات من القرن الماضي، فالْتحق الشيخ عبد اللطيف خليل خضر الصوفي بإحدى حلقاته التدريسية في علم التجويد (رواية حفص) بجامع النبي جرجيس عَلَيْهِٱلسَّلَامُ بعد صلاة العصر من كل يوم، وقرأ عليه حتى ختم قراءة القرآن الكريم بكامله.

ودرس عنده أيضًا القراءات السبع، وهو في الصف الثالث المتوسط في المدرسة الفيصلية الدينية، وبعد أن انتهت قراءته بختمة كاملة مع التكبير، وكانت المدة الزمنية بين الخمسة أشهر والستة، منحه الشيخ محمد صالح ابن الشيخ إسماعيل الجوادي رَحِمَهُمَاٱللَّهُ إجازة بالقراءات السبع، وقد بلغ من العمر ثمانية عشر عامًا.

وفي هذه الفترة الجميلة من عمره، مرحلة الصبا والشباب شغف بحب العلم والتعلم، فكان يذهب إلى الشيوخ والعلماء، منهم: الشيخ المرحوم محمد العربي، الذي تعلم على يده الفقه الحنفي، والشيخ نعمان الدبي، قرأ عليه كتاب الرحبية في المواريث.

وبعد هذه المرحلة الْتحق بكلية الشريعة في بغداد، وابتدأت السنة الدراسية الأولى في كلية الشريعة سنة (١٩٥٠م- ١٩٥١م)، وكان من جملة الهيئة التدريسية الشيخ الجليل المرحوم عبد القادر الخطيب، إمام وخطيب جامع الإمام الأعظم، ومدرس علم التجويد الذي كان يُدرس في الغرفة المخصصة له في الجامع بعد صلاة العصر من كل يوم، وكان يُدرسُ علم التجويد في الكلية أيضًا، فكان له الحظ العظيم في التعرف عليه، فبقي بعد صلاة العصر يذهب إلى غرفته، فيقرأ عليه رواية حفص عن عاصم.

وكان كثيرًا ما يرفع الأذان في جامع أبي حنيفة ببغداد، ويقرأ القرآن الكريم مع قارئ الإذاعة في ذلك الوقت السيد محمود عبد الوهاب والحافظ المُلا مهدي وهما قارئا المحفل في الجامع ليوم الجمعة.

وفي السنة الدراسية الثانية والأيام الأولى منها، أرسل إليه عميد كلية الشريعة الأستاذ ناجي معروف الأعظمي، فلما ذهب إليه في غرفته، قال له جاء إلى الكلية رجل الأعمال السيد الجليل عبد الحميد الدهان، وقد سمعك وأنت تؤذن في جامع أبي حنيفة، وطلب أن تكون مؤذنًا في الجامع الذي بناه، فهل توافق على طلبه، فأجاب: وافقت. ثم ذهب إلى جامع الدهان كمؤذن وقارئ محفل ليوم الجمعة.

وفيما بعد أصبح الشيخ عبد اللطيف خليل خضر الصوفي الإمام والمؤذن وقارئ المحفل في الجامع نفسه وللفترة من (١٩٥٢م- ١٩٥٧م) حتى حصوله على شهادة البكالوريوس من كلية الشريعة.

بعدها التحق بكلية الاحتياط العسكرية في ٣/ ١١/ ١٩٥٧م وتخرج منها برتبة ملازم احتياط، واستمر في الخدمة سنتين تقريبًا. وبتاريخ ١١/ ٣/ ١٩٥٩م تسرح من الخدمة العسكرية وقطع علاقته مع الجيش لأنه فضّل التعليم، ثم ذهب إلى وزارة المعارف وقدم طلبًا للالتحاق بالتعليم مع جميع المستمسكات المطلوبة، والشهادات والمؤهلات العلمية التي تؤهله

أن يكـون مدرسًـا؛ وفعـلًا عُين مدرسًـا في متوسطة تلكيف للبنين في ١٦/ ٣/ ١٩٥٩م وبراتب اسـمي (٢٧) دينـارا عراقيا، فأخذ الأمـر الإداري وشـد رحـال السـفر إلـى المدرسة التي سيكون فيها مربيًا.

وحدثـت في هـذه الفترة حـوادث كثيرة ولكن أهمها وأشـدها ألمًا وحزنًا هو مقتل الملك الشـاب فيصل الثـاني ملك العراق، وأهل بيته.

وفي خضـم الأحـداث الجسـيمة، كان دوامـه في هـذه المدرسـة إلـى يـوم ١/ ٩/ ١٩٦٢م، ثـم نقـل مدرسًـا إلـى متوسـطة الحكمـة للبنيـن والتـي فتحـت جديدًا في الموصل، وبعد فترة قصيرة صدر أمر إداري لتعيينه معاونًا في المدرسة نفسها.

وبتاريـخ ٦/ ١٠/ ١٩٦٣م نُقل مدرسًـا إلـى متوسـطة أم الربيعيـن حتـى يـوم ٦/ ١٠/ ١٩٦٦م، ثـم صـدر أمـر بتعيينـه معاونًا لمدير متوسطة أم الربيعين للبنين.

وفي عام ١٩٦٧م ذهب الشيخ إلى الديار المقدسـة لأداء فريضة الحج وبعد رجوعه من مناسـك الحـج كُلـف من قبل الشـيخ الجليـل محمـد صالـح الجـوادي بإلقـاء خطبة الجمعـة في جامع النبي يونس، وبقي خطيبًـا فيه لمدة سـنتين ونصـف، وبتاريخ ١٤/ ٩/ ١٩٧١م، نقـل إلـى متوسـطة المنصور وبصفة معاون مدير.

وبعدهـا بسـنتين نقـل إلـى المعهـد الإسـلامي التابع لـوزارة التربية، واسـتمر تدريسـه فيهـا إلى حيـن نقله إلى متوسـطة الكفـاح في ٢٢/ ٣/ ١٩٨١م، ثـم بعد ذلك نقل إلى متوسـطة عثمـان بن عفان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ التـي تقع في الموصل - حي المثنى، وذلك بتاريـخ ٢٤/ ١٠/ ١٩٨٣م، ودرّس سـنةً واحدة فيها، بعدها قـدّم طلبًا للإحالة على التقاعـد، فحصلـت الموافقـة علـى طلبـه وأحيل على التقاعد.

وفي عام ١٩٨٨م جلس لتعليم القراءات في جامـع المحـروق لقربه مـن داره. وكان شـغوفًا بقراءة ومطالعة كتـب القراءات في علم التجويد وغيرها.

وفي الحقيقة لا بد لي بأن أذكر أن الشيخ عبد اللطيف خليل خضـر الصوفي، قبل أن يجلس لتعليـم القراءات نمـت عنده ملكة التصنيـف والترتيـب، فقـد انتهـى من أول كتـاب مؤلف لـه في علم القـراءات آنذاك؛

فقدّم طلبًا إلى وزارة الإعلام – دائرة الرقابة العامة، فحصلت الموافقة على طبعه برقم الإجازة (٧٩٢) في ٢٥/ ٧/ ١٩٧٨م.

وهكذا جلس لتعليم القراءات في القرآن الكريم، رغم قلة المصادر والكتب حينذاك وخصوصًا في علم القراءات، فكان كتابه الذي طُبع ونشر هو المصدر الوحيد للشيخ عبد اللطيف خليل خضر الصوفي في التدريس، وكتابه يتكون من أربع مجلدات في علم القراءات.

فتفرغ لتعليم القراءات للقرآن الكريم أكثر ساعات اليوم، فأجاز الكثير من الشباب في جامع المحروق، وآخرين في جامع الرحمن، ثم في جامع ذياب العراقي، وجامع القادسية، وآخرين في جامع النعيمي؛ فكان ينتقل في جميع الجوامع في الموصل، وخاصةً القريبة من سكنه، وكذلك جلس لتعليم القراءات في بعض محافظات العراق وخارج الوطن أيضًا.

وأثناء تقاعده عن العمل الوظيفي طلب منه الشيخ المرحوم الشهيد فيضي محمد أمين الفيضي أن يكون محاضرًا في ثانوية الحدباء الإسلامية، وكان الشهيد المرحوم مديرًا لها، فلبى الدعوة وعاد إلى التدريس كمحاضر لعدة مواد تعليمية بما فيها دروس التجويد وعلم القراءات.

وفي الوقت نفسه كان مواضبًا على تعليم القراءات بعد صلاة العصر في جامع علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الموصل، ومنح فيه عدة إجازات في القراءات السبع لبعض الشباب من محافظة نينوى والأنبار وديالى والمسيب، وكان طلاب العلم يبيتون في الجامع، وكذلك أجاز شابًا من سوريا وآخر من اليمن.

وفي عام ١٩٩٢ قدم طلبًا للمجلس العلمي، وكانت النتيجة النجاح بامتياز، فأصبح إمامًا وخطيبًا، وبقي في جامع علي بن أبي طالب يُعلّم القراءات لطلاب العلم، وينتظر صدور أمر تكليفه.

ثم أجيز الشيخ عبد اللطيف خليل خضر الصوفي بالقراءات الثلاثة المتممة للعشرة من طريق الدرة وذلك في ١٢/ ٨/ ١٩٩٩م من قِبَلْ الشيخ شيرزاد بن عبد الرحمن بن طاهر، وفي هذه الفترة وما سبقها كان مستمرًا في تصنيف وترتيب الكتب؛ فله مؤلفات كثيرة، منها:

١ – البداية والمدخل في علم القراءات.

٢- التوضيح الرباني لحرز الأماني.

٣- وقف حمزة وهشام على الهمزة.

٤- موسوعة العبارات في القراءات السبع بإفراد كل شيخ بختمة كاملة بقراءته.

٥- فوائد وإيضاحات في القراءات.

٦- حجة المستفيد في علم التجويد بقراءة حفص، وما اشترك به القراء معه.

٧- الجامع الأكبر للقراء الأربعة عشر.

٨- رسالة بكلمات الفرش وبيان كيفية قراءتها.

٩- رسالة بما يتعلق بالإمالة وذكر جميع الكلمات الممالة في القرآن الكريم.

١٠- رسالة بجميع ما ذكر في القرآن العظيم من الهمزتين في كلمة وكلمتين وبيان كيفية قراءتها.

١١- رسالة بجميع ما ذكر في القرآن المجيد من الإدغام الكبير بأنواعه للسوسي.

١٢- رسالة بالتكبير وما يتعلق به عند ختم القرآن الكريم.

١٣- مصحف مسبع بالقراءات السبع من طريق الشاطبية.

١٤- مصحف بالقراءات الثلاثة فقط المتممة للعشرة من طريق الدرة.

١٥- مصحف القراءات العشر من طريقي الشاطبية والدرة.

١٦- مصحف برواية شعبة عن عاصم.

١٧- ختمة كاملة برواية ورش عن نافع فقط.

١٨- الأنوار البهية في ترتيب وتعليق على البقرية.

١٩- مصحف برواية ورش عن نافع.

٢٠- عشرة مصاحف لكل شيخ وراوييه مصحف خاص بقراءته.

٢١- حكم الهمزة في القراءات المتواترة.

٢٢- العشر الكبرى من طريق طيبة النشر في القراءات العشر.

٢٣- العشر الكبرى من طريق طيبة النشر في القراءات العشر مع الأربعة الشواذ.

٢٤- الزهر المنتشر في ترتيب تحريرات طيبة النشر.

٢٥- زيادات طيبة النشر المعتبرة على الشاطبية والدرة.

٢٦- أوضح العبارات في شواذ القراءات.

وله أيضًا مجموعة من المطويات.



وفي صيف عام ١٩٩٧م نهاية السنة الدراسية، أتاه وفد من جمعية شبان المسلمين في بغداد منهم الشيخ محمد صالح السامرائي، وقد جاء لغرض أخذ الإجازة بالقراءات السبعة عن الشيخ وأخذها عنه، ومعه الشيخ أحمد القيسي، وعرضا عليه باسْم الجميعة السفر إلى بغداد لتعليم بعض أعضاء منتسبي جميعة الشبان المسلمين أحكام القراءات للقرآن الكريم، وهم مستعدون لتلبية كل متطلباته؛ فوافق الشيخ عبد اللطيف خليل خضر الصوفي وسافر هو وأسرته فاستأجروا له دارًا في بغداد – حي الاعلام، فكان الدار للسكن، ودَرَّس فيه بعض طلبة العلم، فبقيَ أربعة أشهر بتعليم متواصل ومستمر نهارًا وجزءًا من الليل، ويأتيه الطلبة كل حسب ظروفه وعمله، وكان لكل واحد منهم فترة زمنية واحدة، فمنح فيها تسع إجازات في القراءات السبع من طريق الشاطبية، وأربع إجازات في الثلاثة المتممة من طريق الدرة المضيئة، وأربع إجازاتٍ في قراءة شعبة عن عاصم.

فَمُنِحُوا جميعًا إجازات باحتفال كبير في جامع الجهاد في بغداد – مدينة الشعب، حضره سادة أجلاء منهم: الدكتور محسن عبد الحميد، والدكتور داؤود العاني، وطلبا منه أن يوقعا على جميع الإجازات، فوافق الشيخ عبد اللطيف الصوفي، وكانت هذه أول ظاهرة ومبادرة من نوعها.

ثم عاد إلى الموصل والتحق أولاده بدراستهم، وهو بمحاضراته في مدرسة الحدباء الدينية، وفي الوقت نفسه قدم كتاب تكليفه في جامع علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصدر أمر مباشرته، وعاد إلى تعليم القراءات في الجامع المذكور آنفًا.

وهكذا الشيخ عبد اللطيف خليل خضر الصوفي كان دؤوبًا في طلب العلم من مناهله الغنية بالمعارف في علوم الشريعة وغيرها.

وكذلك في تعليم طلبة العلم في القراءات للقرآن الكريم، حيث عَلّم طلبةً كثيرين ومنح إجازات عديدة في جميع القراءات.

داعين الله تعالى أن يجعل علمه وعمله خالصًا لوجهه الكريم، ويثقل بهما ميزان حسناته يوم الدين، وأن يكون نبراسًا لنا جميعًا نقتدي بنهجه في طريق العلم والهداية.





القسم الثالث: عالَم الكتُب

مراجعة كتاب
«الفن وتطور الثقافة الإنسانية»

بقلم: د. أحمد موسى [(١)]

مؤلف الكتاب:

أ.د. شاكر عبد الحميد (١٩٥٢ - ٢٠٢١). أستاذ علم نفس الإبداع بأكاديمية الفنون المصرية. شغَل عددًا من المناصب، أبرزها: منصب عميد المعهد العالي للنقد الفني بأكاديمية الفنون بمصر، ومنصب أمين عام المجلس الأعلى للثقافة، ومنصب وزير الثقافة المصرية في ديسمبر ٢٠١١، ومدير برنامج تربية الموهوبين بكلية الدراسات العليا بجامعة الخليج العربي بمملكة البحرين في الفترة ٢٠٠٥- ٢٠١١. وقد حاز جوائز عدة، أبرزها: جائزة الشيخ زايد للكتاب في مجال الفنون ٢٠١٢ عن كتاب «الفن والغرابة»، وجائزة الدولة التقديرية ٢٠١٧، وله عدد كبير من البحوث والمؤلفات والكتب المترجمة.

بيانات الكتاب:

تاريخ النشر: صدرت الطبعة الأولى في عام ٢٠١٥ عن دار ميريت للنشر بالقاهرة.

الترقيم الدولي: ٩٧٨٩٧٧٣٥١٧٢٧٤

(١) هذه المراجعة إهداء إلى روح أستاذي الجليل شاكر عبد الحميد الذي فاضت روحه الطاهرة إلى بارئها مساء يوم الخميس ١٨ مارس ٢٠٢١م.

جاء الكتاب في ٣١٠ صفحة من القطع المتوسط، موزعة على سبعة فصول، بالإضافة إلى مقدمة وهوامش وقائمة للمراجع. وجاءت عناوين الفصول كالتالي: الأول: «في تعريف الفن»، والثاني: «معنى الثقافة - في علاقتها بالفنون خاصة»، والثالث: «الذات المتكلمة في اللوحات»، والرابع: «الولع بالفوتوغرافيا»، والخامس: «السينما وصناعة النجوم»، والسادس: «الصناعات الثقافية والإبداعية»، والسابع: «نهضة مصر وروح المكان: ملاحظات أولية».

إطلالة عامة:

أشار المؤلف عبر فصول الكتاب مجتمعة إلى أن الفن يمتد بجذوره في الطبيعة البشرية، وأنه ظاهرة إنسانية عامة ووسيلة للتخاطب الإنساني. وهو أيضًا أشبه باستجابة لتلك الجوانب المعرفية والإدراكية والوجدانية المتطورة من هذه الطبيعة. كما بيَّنَ أن لكل ثقافة إنسانية فنونها الخاصة بها، المتفاعلة أو الممتزجة مع فنون الآخرين أيضًا.

ولمَّا كان الفن يتعلق بالجمال وتتعلق الثقافة بالهوية، بات دور الفن يتمثل في الكشف عن الجمال الكامن في الإنسان وفي الحياة، فيما تجلى دور الثقافة في تأكيد هُوية الإنسان، وهُوية واقعه، وكذلك العَلاقات التي تربط هذا الإنسان بواقعه، والتي تربط هذا الواقع كذلك بالعالم المحيط به، قربًا وبُعدًا. كما يقوم الفن بتجميع الناس معًا وتقوية شعورهم بهويتهم وثقافتهم وخصوصية وجودهم في هذه الحياة.

يعد الفن بمثابة تعبير ملموس عن الإبداع الإنساني، وهو يعكس في حد ذاته الإدراك الإنساني للعالم، ويعكس تطور المجتمعات أيضًا. ويعد الفن، بوصفه وسيلة للاستغراق والانشغال والتدفق والتعبير الشخصي والإبداعي؛ مصدرًا للمتعة والإثارة العقلية؛ فهو يزودنا برؤى أخرى جديدة للمجتمع والحياة، ويحدد ويوجه الأفراد نحو قيم جديدة بازغة، ويزودنا باستبصارات حول عدد من المعاني، ويقدم الفرص المناسبة لتحقيق الذات وتشجيع ارتقاء الإبداع.

تطـورت الثقافـات، عـبر الزمـن، من خلال عمليـة مؤلفة أو مركبـة جمعت في جنباتها بين الجغرافية والطقس وأسـاليب الحيـاة والمعتقـدات الروحيـة الأوليـة والاختيـارات الاجتماعيـة. وتعتمـد قوة الثقافـة، الآن، علـى مـا إذا كان النـاس، روحيًّا وسياسـيًّا، يتسمون بحرية التفكير، ويسـلكون، أيضًـا، بصفتهـم أفـرادًا لهم حريتهـم، ولهـم كرامتهـم التـي يحفظها الدستور والقانون.

عرض الفصول:

يجـري إنتـاج الفـن حيـن يقـوم فنان ما بإبـداع عمل فنـي يتعلـق بالجمال، أو باسـتثارة خبرة جماليـة يعُدُّهـا المتلقون لهذا العمل ذات جدارة أو جاذبية جمالية. مـن هـذا المنطلـق وتحليله ونقـده، تتبع المؤلـف في الفصـل الأول تعريفات الفن القاموسية والإجرائية، انتهى منه إلى تبني طرح الفيلسوف الألماني «مارتن هيدجر» Martin Heidegger (١٨٨٩- ١٩٧٦) بتحديـد الفـن عـبر الفحـص المقـارن للأعمـال الفنية الفعلية التي تكشـف عن طبيعته، وليس اسـتنادًا لمفاهيم فنية كلية.

ويقـرر المؤلـف أن «هيدجـر» علـى هذا النحـو، لعله يكـون أقرب الفلاسـفة إلى تقديم ما يسمى بالتعريف الإجرائي للفن. وقـد ضمَّـنَ المؤلف هـذا الفصل كذلك لبعـض تصنيفات الفن القديم والحديث، وعـرض لوظائفه المتنوعـة على الصعيد النفسي والاجتماعي الثقافي؛ إذ يشبع الفن حاجاتنـا الشـخصية للتعبير عـن أفكارنا وانفعالاتنا وأحلامنـا وخيالاتنا ودوافعنا والكثيـر مـن الجوانـب الخاصـة بذاتنـا بوصفنـا أفرادًا موجودين في هـذه الحياة. بجانـب إشـباعه لحاجاتنـا الاجتماعيـة للتواصل مع الآخرين وللاحتفال والمتعة الجمالية.

في الفصـل الثـاني خلـص المؤلف إلى الـدور الحاسـم الـذي قامـت بـه الثقافة العلميـة في تقـدم تكنولوجيـا الفنـون وعالمهـا، ومـا أدتـه الثقافـة الدينيـة من أدوارٍ متباينـة أيضًا؛ كانـت أحيانًا إيجابية فشـجعت الفنون، وأحيانًا سلبية فأعاقتها أو أخرتها أو حرمتها، وكذلك دور الثقافة الاقتصاديـة في تطويـر عالم سـوق الفن، وفي تطـور عديـد مـن الفنـون المرتبطـة

بهذا العالم. وكذلك تأثير الثقافة الفنية والنظريات الفلسفية في تطور عمليات الإبداع الفني ذاتها. وإننا بتتبع تطور الفنون، فإننا نتتبع طموحات الشعوب وأحلامها ورؤاها ومعتقداتها الأساسية أو فلسفتها العامة حول الكون والإنسان والحياة. فنحن لا يمكننا أن نلاحظ ما يدل عليه مفهوم «الثقافة» (Culture)، وإنما نستدل على الثقافة من ملاحظاتنا لسلوك الطرائق الثقافية، كذلك السلوكيات المرتبطة بثقافة بعينها.

في أحوال كثيرة تكون السيرة الذاتية للفنان أحد المفاتيح الأساسية لفَهم عمله وإنتاجه الفني؛ حيث تكون حياة الفنان نفسها هي موضوع العمل. ومع ذلك فإن هذه ليست قاعدة عامة. في الفصل الثالث يعرف المؤلف المقصود بالذات المتكلمة، ويقرر أن تحويل ما هو ذاتي إلى موضوعي، أمرٌ قد يصدق على أمور شتى في الفن، بيد أنه لا يصدق بشكل خاص على تصوير الفنان للإنسان، حتى إن كانت هناك موضوعية هنا فإنها ستكون موضوعية ذاتية من دون شك. وقد تعرض المؤلف في سياق ها الفصل لعدد من المبدعين، من أمثال: الفنان النرويجي «إدفارد مونش» Edvard Munch (١٨٦٣- ١٩٤٤) والفنان الهولندي «ڤان جوخ» van Gogh (١٨٥٣- ١٨٩٠)، والفنان الهولندي «رمبرانت» Rembrandt (١٦٠٦- ١٦٦٩). وهكذا فإننا مع تتبعنا حركة الفن في العالم منذ القرن الخامس عشر وحتى اليوم، سنجد أن تطوره كان متوازيًا مع تطور الفردية ونموها في المجتمع، وكذلك نحو شعور الفنانين بالاستقلال والحرية أيضًا خاصة لدى هؤلاء الذين يرون أن التعبير عن الشخصية أهم أهدافهم.

أفرد المؤلف الفصل الرابع لتتبع تأثيرات التصوير الفوتوغرافي بوصفه منجزًا واختراعًا حاسمًا في إثراء الثقافة الإنسانية بشكلٍ عام؛ إذ أسهم في تضييق المسافة بين العمل الفني ومتلقيه، فقد أصبح العمل الفني متاحًا ومتكررًا وشائعًا، ولم تعد ثمة مسافة تفصل بيننا والأعمال الفنية، ولم تعد الأعمال الفنية ترتبط «بالجليل» المتعلق بالطقس أو



الشعائر، ولا «بالجميل» المتفرد عن وظيفته الشعائرية المُسَّيسة، التي يمكن صياغتها وفق السلطة السياسية.

واستكمالًا لتتبع المنجزات والاختراعات الحديثة وتأثيرها في إثراء الثقافة الإنسانية، جاء الفصل الخامس ليعرض لفن السينما، الذي مثَّلَ أيضًا تلك الأداة الأعظم تأثيرًا على الجماهير العريضة من بين كل تلك الأدوات التي تم اختراعها عبر التاريخ البشري، وهي الفن الشعبي الجماهيري الخاص بعصرنا، فالعقلية الخاصة بالناس، وبخاصة سكان الحضر، تعد نتاجًا لهذا الفن. وقد كانت القاعدة دائمًا في تاريخ الفن والثقافة أن أحدهما دال على الآخر، كما أن التفاعل بينهما تفاعل جدلي في الأساس، فالفن يربي الذوق الخاص بالجمهور؛ كما أن التذوق الأفضل الذي لدى هذا الجمهور يتطلب حدوث تطور في الفن ويجسده، ويتطلب كذلك وصوله إلى مستويات أعلى. وهذا الأمر واضح في حالة السينما بشكل يفوق كثيرًا وضوحه بالنسبة للفنون الأخرى. كما أن الافتقار إلى التذوق المناسب للسينما يقتلها، ولا يحدث هذا بالنسبة للفنانين أنفسهم فقط، بل للعمل الفني ذاته كله، إنه يختنق حتى قبل أن يولد، فالفيلم عادة ما يكون نتاجًا لصناعة كبيرة، إنه يكلِّف كثيرًا ويكون نتاجًا أيضًا لعملية جماعية معقدة يصعب أن يقوم أي فرد مهما كانت عبقريته بالإبداع له بمفرده، بعيدًا عن عمليات التذوق وتحيزات التفضيلات الخاصة بالجمهور في عصره.

حين تولى مؤلف هذا الكتاب منصب وزير الثقافة المصرية، وقد تولاها لفترة زمنية قصيرة، تمثل مشروعه الثقافي الذي لم يكتمل، فيما اصطلح عليه: الصناعات الثقافية الإبداعية، وهو موضوع الفصل السادس من هذا الكتاب. وفي حد ذاتها تعد «صناعة الثقافة» امتدادًا مباشرًا للصناعات الجديدة الخاصة بعمليات الإنتاج والتوزيع الجماهيرية الكبيرة، التي بدأت عند منعطف القرن التاسع عشر؛ حيث ظهرت السينما وتكنولوجيا تسجيل الصوت والصحف اليومية واسعة الانتشار والمطبوعات الشعبية (الكتب والمجلات والصحف)، ثم أخيرًا الراديو

والإذاعة. لكن هذه الثقافة قد نمت وتطورت أيضًا من خلال ذلك التراث الفني الذي أصبحت فيه تقنيات السطح والمظهر هي التي تجذب الاهتمام؛ بينما تم التخلي عن المعنى الداخلي الملازم له. وعند نهاية القرن العشرين فتحت التكنولوجيا الرقمية آفاقًا واحتمالات جديدة وكبيرة، وهي على الرغم من ذلك ما تزال في بداياتها.

في سياق الفصل السابع قدم المؤلف تساؤلًا رئيس، له صور شتى، مؤداه: أتوجد روح مصرية؟ أتوجد روح للمكان الذي نعيش فيه ونحبه ونسميه: مصر؟ وحال كانت الإجابة «بنعم» وهي يقينًا كذلك، فما طبيعة هذه الروح؟ وما عناصرها؟ وما الذي يمكن أن يكون قد طرأ عليها؟ وهل استطاع الفن أن يلمس قلب هذه الروح أو حتى سطحها؟ وعبر هذا الفصل نجد المؤلف ينحاز إلى ما أطلق عليه: «روح المكان» لا «عبقرية المكان» مصطلح «جمال حمدان»، وجادل بأن مصطلح روح المكان أكثر رحابة ويتصل بما وجدنا الإنسان المصري عليه: محبًّا للحياة، محبًّا للفن، مرحًا، متدينًا بلا إفراط ولا تفريط، وفي قلب ذلك كله نجد هذا الحس الوطني الذي يكشف عن حبه العميق لوطنه، واعتزازه به، وبتاريخه، وهذا الإيمان الاستراتيجي بالوحدة الوطنية، لدى كل من في قلبه إيمان وفي عقله وعي. وتتبع المؤلف في سبيل التأكيد على هذا الطرح ما شهده التاريخ المصري من أحداثٍ ظهرت معها أغاني رائعة وأعمال وإبداعات خالدة.



مراجعة كتاب «القراءة الماركسية للتراث الإسلامي» ليوسف سمرين

بقلم: باسم بشينية

أنهيتُ قراءة كتاب يوسف سمرين الذي طُبع مؤخرًا في دار فارس – الكويت، تحت عنوان: «القراءة الماركسية للتراث الإسلامي».

كان الكتاب كتابًا نقديًا، تعرض فيه المؤلف لنقد جملة من الماركسيين العرب، هم: طيب تزيني، والعفيف الأخضر، وحسين مروة، وصادق جلال العظم، إضافة إلى ماركسيٍّ تأسلَم لاحقًا وهو: روجيه جارودي، الذي كان ماديًا. أيضًا فقد تعرض الكاتب لنقد محمد سعيد رمضان البوطي الذي كان يحاول احتواء تزيني وجارودي تحت مظلة الإسلام.

وسأحاول في هذه الأسطر تلخيص شيء مما جاء في النقد.

يوسف سمرين لم يبدأ مباشرة بالتعرض لأسطر تزيني ببيان الخطأ عند قراءته الإسلام، أعني المسلك الأسهل في ممارسة بيان الخطأ، وإنما حوى نقده في بداية التعرض له وللعفيف الأخضر ولجارودي بمقدمة هي عبارة عن عرض مدى امتلاك هؤلاء الماركسيين لأدوات فهم التراث أولا، ثم مدى اتساقهم مع الفلسفة التي كانوا يتبنونها، وهي المادية.

فبالنسبة لتزيني مثلًا، حينما كان يؤكد على انطلاقه من الرؤية المادية الجدلية،

كان يقول بأن الموقف الطبيعي إنما هو أحد أسلحة الفكر المادي ضد الغيبية بكل أشكالها، وعند إعلانه العداء للغيبية بكل أشكالها يغفل عما يقوله خصوم المادية كما ينقل لينين عنهم أنهم يرون إثباتَ المادية للشيء في ذاته يعني قبول المادية «بشيء ما غيبي قائم وراء حدود التجربة». مع أن الغابة سميت غابة لأنها تغيّب ما فيها، فالغيب غير مشهود مع إمكان شهوده، لا أنه يعني امتناع شهوده بصورة مطلقة. حتى أن فريد وجدي كان يقول «المادي والديني يستويان في الإيمان بالغيب».

أما بالنسبة لمفاتيح قراءة التراث الإسلامي فإن تزيني كان شديد الضعف، حيث يعمم الأطروحات الكانطية في الإلهيات، على الطرح الإسلامي، ففي حين كان كانط يرى أن الإله لا يمكن إقامة دليل عقلي على وجوده، يقول تزيني «الإيمانية هي الاعتقاد الديني العاري عن دليل». في حين أن الإيمانية في ديننا كما يقول ابن تيمية هي على النقيض من ذلك، «فالإيمان بالشيء مشروط بقيام دليل يدل عليه» (مجموع الفتاوى، ج٢٩، ص٤٩٣).

ومن هنا يظهر أن الإسلام في نظر الماركسية العربية كان مرادفًا بصورة مطلقة لمقالات كانط في اللاهوت، وبهذا المستوى في قراءة التراث الإسلامي، كان يتبجح تزيني بعناوين مثل: (مشروع رؤية جديدة في الفكر العربي في العصر الوسيط)، وبهذا المستوى يكتب عنه نبيل علي صالح مؤلفًا موسومًا بـ (طيب تزيني من التراث إلى النهضة)!

ولا يتوقف الأمر هنا حول مدى امتلاك تزيني أدوات قراءة التراث، بل على سبيل المثال عند تعرضه للعقل في الإسلام، يقول «برز داود بن المحبر من خلال كتاباته حول العقل وقد ارتكز على حديث قدسي حول العقل رواه ابن تيمية في بغيته» يقصد تزيني: بغية المرتاد، فالرجل لا يفرق بين ذكر حديث لغاية النقد، وبين روايته، فابن تيمية في كتابه بغية المرتاد ذكرَ الحديث لبيان بطلانه وأنه مكذوب، ولم يعتمد الرواية التي تتعلق بإقامة الإسناد. مع أن تزيني في تعلقه بالعقلانية لم يكن منطلقًا من المادية التي يدّعيها، فكل ما جاء في العقل لدى الإسلاميين كان في

إطار تجريد العقل وإثبات أنه قائم بنفسه خارج الجسم. وفي تناقضٍ صارخ مع أصول المادية كان تزيني ينتصر لمثالية من الإسلاميين، حتى أنه كان يرى أن ابن سينا كان ماديًا، في حين أن الماديين بحق في دراستهم لابن سينا كانوا يقولون: «ابن سينا انحرف عن بعض المشاكل الأرسطية نحو الأفلاطونية الجديدة» (الموسوعة الفلسفية، روزنتال ويودين، دار الطليعة، ص٤١)، والمعتزلة التي تثبت خلق الإنسان لفعله، فرقة [عقلانية] يرحب بمقالاتها تزيني الذي كان يدعي المادية! في حين أن المعتزلة كانت ترى أن أفعال العباد ناشئة من الإنسان نفسه بمعزل عن الأسباب الموضوعية المادية.

ولا يفترق العفيف الأخضر في الجهل المركب بالتراث الإسلامي عن تزيني، بل كان الأخضر يرى أيضًا أن المعتزلة من «منوعات الفكر المادي»، وأيضًا الإسماعلية، بل جعل القرامطة من جملة المكافحين ضد الخرافة! وبهذا ترى أن كل فرقة باطنية أو فرقة جرى تبديعها هي حتمًا فرقة عقلانية «مادية».

إن هذا الولع بابن سينا، والقرامطة، والإسماعلية، وحتى المعتزلة «يظهر لك طريقة التعامل، لا إشكال في الفزع إلى أخس الصور المثالية في التراث للاعتراض على الإسلام، إنها تظهر الولع بالدين والتراث الديني في أقوام يصورونه على أنه خرافة لا أكثر، لكن تلك الخرافة بزعمهم، تؤرقهم إلى حد الفزع إلى خرافات باعترافهم في التراث وإحيائها، ثم تصويرها كأنها أدب نقدي معاصر اتجاه النصوص الشرعية، في وقت كانوا الأحوج فيه إلى سد النقص في اطلاعهم الشرعي» (يوسف سمرين، ص٧٩).

فهذا مدى امتلاك الماركسيين العرب أولَّ درجة تؤهل لقراءة التراث، فكيف بنقدهم للإسلام؟

كان تزيني في رحلة طعنه بالإسلام الأصيل، يحذّر دومًا من النزعة الاقتصادية الاختزالية، أي اختزال الواقع كله في الاقتصاد، وهي عين مقولة أنجلز، لكن تزيني يظهر سريعًا أنه حافظٌ بلا فَهم، فتراه يقول بأن الإسلام عبارة عن خطة اقتصادية، كسب الجماهير الفقيرة بكفاح

الذين يكنزون الذهب والفضة. مع أن الإسلام في الحقيقة جاء للكفر بالآلهة المتعددة، فهل كان يجري في الإسلام تجاهل الجحود العقدي مقابل المدخول النقدي؟ ففي حين كان تزيني يدّعي عدم اختزال الواقع في العامل الاقتصادي عند حديثه عن الإسلام الذي يعاديه = يختزل كل ما فيه في ذلك العامل، ومع ذلك يخالف أقوال أنجلز الرجل الثاني في الماركسية، حيث يقول: «إن العوامل الاقتصادية، تؤلف قوة تاريخية حاسمة بالنسبة للعالم الحديث على الأقل، وأن هذه العوامل الاقتصادية تشكل الأساس الذي تقوم عليه التناحرات الطبقية الراهنة» (أنجلز، ستبانوفا، دار التقدم، موسكو، ص٤٦)؛ فأين الانطلاقة الماركسية في اتهامات تزيني؟

أما بالنسبة لصادق جلال العظم، الذي كان يَعرض عدم سجود إبليس لآدم على أنه يجب أن يُقرأ قراءة معاصرة، وبالتالي فلماذا لا نقول بأن إبليس كان موحدًا بعدم سجوده لغير الله؟ يظهر جهله المطبق بقصة إبليس، حيث أن إبليس نفسه في النصوص لم يجعل التوحيد علة في عدم سجوده، وإنما جعل «أفضليته المزعومة» هي العلة. جاء في التنزيل: ﴿قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾.

أما العفيف الأخضر الذي كان يحكي أن خالد بن الوليد قتل ابن نويرة لأجل الزواج بامرأته الفاتنة، ومع إثبات يوسف لكذب الأخضر، إلا أن نقده كان مفحمًا، فالعفيف الذي كان يتبنى البيئة السوفييتية، وقد كان مترجِمًا للبيان الشيوعي، يغفل كل الغفلة عن حصيلة الجيش الأحمر السوفييتي في الحرب العالمية الثانية، فمن الزاوية الشمالية فحسب: ١١١ قضية اغتصاب، و١٢٠٤ قضية سلب، حتى أم مارتا هيرلس كانت تستنجد أفراد الجيش لا في عدم اغتصابها! وإنما تقول «واحد فقط، أرجوك واحد فقط»!

يقول يوسف سمرين: «لقد كانوا يقرؤون التراث الإسلامي بصورة مثالية ويطالبون الإسلام بهذا، ويتركون التدقيق، لصالح زج ما في رؤوسهم في التاريخ، ليظهر كأن الإسلام مدانٌ وفق أخلاق مثالية، وهذا ما كان حاضرًا في تصور

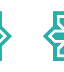
تزيني للإسلام، وبالتالي تعامل معه في كل مرحلة من مراحل تقلباته الفكرية بموقف محدد أن الإسلام في حيز المثالية، ويمكن التعامل معه فقط على هذا الأساس».

أما البوطـي الذي كان يحـاول احتواء جارودي تحت مسمى الإسلام الصحيح، كان يعـرّض بابـن بـاز الـذي قـال في جارودي: «لم يعتنق الإسـلام الذي عليه المسـلمون»، وفي حين يقول البوطي عن جارودي: «رأيته وهو في أبرز مظاهر تبتّله وعبوديّتـه». يقول جارودي: «لا يوجد في القـرآن تحديـد للصلوات، الصـلاة تعني التفكير بأشـياء عامة وليس التفكير بأشياء خاصـة، ثمة صلاة واحـدة في العالم حتى ولـو اختلفـت مـن شَـعب لآخـر» (هذه وصيتـي للقرن ٢١، جـارودي، ص٤١)، مـع أن جـارودي كان مـن أجهـل الناس بمفاتيح قـراءة التراث، فهـو لا يصل إلى مستوى عوام المسلمين في العلم الشرعي، فضلًا عن مسـتوى طالب علم، تراه يقول في سؤال اسـتنكاري: «استخدم أحمد بن حنبل أحاديث كثيـرة، من أين جاء بها؟!» (هذه وصيتـي للقـرن ٢١، ص٤١) فأين احوائيات البوطي من هذا؟

وبعد، كان هذا أشبه ما يكون بالمراجعة، أو التلخيص لبعض ما استوقفني. على أنّ الكتـاب حـوى موضوعات أخـرى مهمة سـواء في النقد للخطـأ، أو التحرير لبعض الأطروحات الصحيحة. وبالنسبة لمراجع الأقوال فكلها في الكتاب لمن شـاء العودة إليها.

الكتـاب نافـع جـدًا في الدفـاع عـن الإسـلام، وعـن عقيـدة أهـل الحديـث، وفي تطويـر المَلكة النقديـة، وأعجبني في الكاتِـب أنـه مُجانـب لمـا درج عليه كثير من الأكاديميين تحت مسمى الموضوعية البحثيـة، فمـع إفحـام نقـده العلمـي لخصومه، إلا أنه لم يعرض نفسه كمجرد ناقـد معرفي، بل أبدى في كثير من سـطوره عاطفتـه العقديـة ضد محاربي الشـريعة، فترى وسـم الأخضر باليساري الصبياني، ووسم تزيني بالعَبثي والخطابي، وهكذا.







مَن صنَّف «مسند» أبي داود الطيالسي؟

خليل بن محمد المطيري

لا يخفى على الباحثين مدى أهمية إثبات نسبة كل كتاب إلى مصنفه، حتى لا يتم عزو قولٍ ما إلى غير قائله، أو نسبة وهمٍ إلى غير صاحبه، أو معرفة منهج صاحب هذا المصنف من خلال دراسة مصنفه... إلى آخره.

ومما استرعى انتباهي: «مسند» الإمام أبي داود الطيالسي -رحمه الله تعالى- حيث اختلفت آراء العلماء فيمن صنفه؛ فوقفت على أربعة أقوال:

القول الأول: أنه من تصنيف يونس بن حبيب.

القول الثاني: أنه من تصنيف أبي داود الطيالسي نفسه.

القول الثالث: أنه من تصنيف أبي مسعود أحمد بن الفرات الرازي.

القول الرابع: أنه من جمع بعض المتأخّرين من حفّاظ خراسان.

وسنذكر -بحول الله وقوته- بيان كل قول على حدة، مع ذكر القائلين به، مشفوعًا بأدلته، مع ذكر الراجح منه:

❁ القول الأول: أنه من تصنيف يونس بن حبيب:



ومن قال بذلك:

١ - ابن أبـي حاتم الرازي: صرح بذلك في موضعين من تصانيفه وهما:

أ- الجـرح والتعديل، فقـد قال -رحمه الله تعالـى- لمـا ترجـم لعبـد الرحمن بن علقمـة الثقفـي (٥/ ٢٧٣): «أدخله يونس بن حبيب في كتاب -وفي نسخة من الجرح: مسـند، وكذا جـاء في الإصابة (٤/ ١٧٣)- الوحـدان، فأخـبرت أبي بذلك فقـال: هو تابعي، ليست له صحبة».

فهـذا تصريح بيِّن من ابـن أبي حاتم بأن يونـس بـن حبيب هو الذي أنشـأ «مسـند» الطيالسـي، وجعله على مسـانيد الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بدليـل أنـه هو الـذي أدخـل عبد الرحمـن الثقفـي في مسـانيد الصحابـة من الوحـدان -يعنـي ممن لـم يـرو إلا حديثًا واحدًا-.

وإن قال قائل: بأن هـذا القول يُعد أيضًا مـن قول أبـي حاتم الـرازي نفسـه لإقراره لابنه على ذلك لَما أبعد.

تنبيه:

جـاء في ترجمة عبد الرحمـن بن علقمة الثقفـي المشـار إليـه آنفًـا إسـناد حديثـه مـن «مسـند» الطيالسـي محرفًـا، وقد جاء على الصواب عنـد النسـائي في الصغرى، فليصحح.

ب-كتاب «علل الحديث» (٢/ ٢٨٨)، فقـد قال -رحمه الله تعالى- لما ذكر حديثًا رواه أبو داود الطيالسي من طريق أبي أيوب الأزدي: «ولـم يفهم يونس بن حبيب أن أبا أيوب الأزدي هو العتكي، فأدخله في مسند أبي أيوب الأنصاري».

قلت: وهذه الرواية في «مسند» الطيالسي رقم: (٢٥٩).

وفي هذيـن القوليـن مـن ابن أبـي حاتم دليل واضح على أن «مسـند» الطيالسي هو من تصنيف يونس بن حبيب.

وحسبك بذلك حجةً من ابن أبي حاتم، فهو مـن أعلـم النـاس بيونس بـن حبيب، وأكثر الناس رواية عنه.

٢- ابن حبان البستي:

فقد ذكـر يونس بن حبيـب في «الثقات» (٩/ ٢٩١-٢٩٢) وقـال «صاحـب مسـند أبي داود الطيالسي».

وكلمة «صاحب» هـذه لا تقال إلا على من صنف الكتاب لا من رواه عن مصنفه.

ولو أن ابن حبان يرى أن هذا «المسـند» هو من تصنيف أبي داود الطيالسـي لقال في

يونس بن حبيب: «راوي مسند أبي داود الطيالسي» وهذا أمر معلوم.

٣- شمس الدين الذهبي:

قال -رحمه الله تعالى- في السير (٩/ ٣٨٢) في ترجمة أبي داود الطيالسي: «سمع يونس بن حبيب عدة مجالس مفرقة، فهي المسند الذي وقع لنا».

ويعني الذهبي بذلك: أن ما وصل إلينا من «مسند» الطيالسي هي عدة مجالس أملاها أبو داود، فجمعها يونس بن حبيب، وجعلها على ترتيب «المسند».

قلت: وثمة دليل آخر -قطعي- يثبت أن «المسند» هو من تصنيف يونس بن حبيب:

وهو ما جاء في المسند ص (١٧٤-١٧٥): «... حدثنا أبو محمد عبد الله بن جعفر بن أحمد بن فارس، حدثنا يونس بن حبيب قال: أحاديث حارثة بن وهب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حدثنا أبو داود الطيالسي...».

وكذلك في ص (٣٦٣-٣٦٤): «...ثنا أبو بشر يونس بن حبيب قال: أبو العالية الريحاني عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ حدثنا أبو داود...».

ففي هذين الموضعين ترى أن يونس بن حبيب هو الذي صرح بأسماء الصحابة الذين سيورد لهم أحاديثهم فيما رواه عن شيخه أبي داود الطيالسي.

ولو أن أبا داود الطيالسي هو الذي صنف «المسند» لنُسبت هاتان العبارتان إليه.

وفي كل ما أوردناه من أدلة تثبت لنا أن هذا «المسند» هو من تصنيف يونس بن حبيب -رحمه الله تعالى-.

❁ القول الثاني: أنه من تصنيف أبي داود الطيالسي

ومن قال بذلك:

١- الحاكم النيسابوري صاحب المستدرك، كما في المدخل له ص (٣٠) قال: «أبو داود الطيالسي هو أول من صنف المسند على تراجم الرجال في الإسلام».

٢- أبو يعلى الخليلي: قال: «أول من صنف المسند على ترتيب الصحابة بالبصرة: أبو داود الطيالسي». انظر: الإرشاد (٢/ ٥١٢).

٣- ابن خير الأشبيلي: قال في فهرسته ص (١٤١): «مسند أبي داود الطيالسي وهو أول مسند صنف في الإسلام».

٤- القرطبي: قال في تفسيره (١/ ٩): «مسند أبي داود الطيالسي هو أول مسند صنف في الإسلام».

٥- الحافظ العراقي: قال في فتح المغيث (١/ ٥٠): «مسند أبي داود الطيالسي، ويقال إنه أول مسند صنف».

والجواب عن هذا القول بما يأتي:

١- ما أوردناه من أدلة صريحة في القول الأول تثبت أن هذا «المسند» ليس من تصنيف أبي داود الطيالسي.

٢- القائل بأن أبا داود الطيالسي هو الذي صنف «المسند» إمام واحد فقط وهو: الحاكم النيسابوري، ومن ذُكر دونه فهو تبع له، فإن أبا يعلى الخليلي تلميذ للحاكم، وهو كثير ما يتبع شيخه في كتابه الإرشاد، وهذا أمر يعلمه من له اطلاع عليه.

٣- وأما ما ذكر عن ابن خير الأشبيلي، والقرطبي، والعراقي بأن «المسند هو أول مسند صنف في الإسلام» ليس بلازم منه أن الطيالسي هو الذي صنفه.

٤- على أنا لا نسلم بصحة هذه المقولة -أعني القول بأن أبا داود هو أول من صنف المسند- فقد قال ابن عدي -رحمه الله تعالى- في كتابه الكامل في ترجمة يحيى الحماني: «أول من صنف المسند بالبصرة مُسَدَّد» (٧/ ٢٣٩) ومعلوم أن الطيالسي أعلى طبقة من مسدد، ثم إن قول ابن عدي هذا هو أولى بالقبول ممن سواه ممن كان دونه في الرتبة والطبقة.

وقال الحافظ ابن حجر في «التقريب»: «مسدد بن مسرهد... يقال إنه أول من صنف المسند بالبصرة».

وقال الحافظ الكتاني في «الرسالة المستطرفة» ص (٦١): «مسند أبي داود الطيالسي... قيل: وهو أول مسند مصنف، ورُدّ بأن هذا صحيح لو كان الجامع له، لتقدُّمه، لكن الجامع له غيرُه...».

❁ القول الثالث: أنه من تصنيف أبي مسعود أحمد بن الفرات الرازي:

قال بذلك: الحافظ أبو نعيم الأصبهاني، قال الذهبي في السير (٩/ ٣٨٢): «وقال أبو بكر الخطيب: قال لنا أبو نعيم: صنف أبو مسعود الرازي ليونس بن حبيب مسند أبي داود الطيالسي»

جوابه:

غاية ما في هذا القول أن أبا مسعود الرازي قد أعان يونس بن حبيب في تصنيفه للمسند، أو أنه انتخب له بعض مروياته عن أبي داود الطيالسي.

على أنا لا نسلم بذلك كله، فقد تبين لنا من خلال دراستنا للمسند أن يونس بن حبيب هو وحده الذي صنف هذا المسند وذلك بما يأتي:

١- ما أوردناه سلفًا في القول الأول بما لا مزيد عليه في الاستدلال بأن يونس بن حبيب هو صاحب المسند.

٢- وجدت في «المسند» كثيرًا من الزوائد التي زادها يونس بن حبيب على مرويات شيخه أبي داود الطيالسي، ومن هذه الزوائد: روايته عن حماد بن زيد رقم (٦٢٢)، وعن حماد بن سلمة رقم (٩١١)، وعن عبد الله بن المبارك رقم (١٠١٠)، وعن سفيان الثوري رقم (١٧٢٠)، وعن عبد الحكم القسملي رقم (٢٢١٢). كذا جاء في المطبوع من المسند، وأخشى أن يكون اسم أبي داود سقط من هذه المواضع حيث لم أجد أحدًا ممن ترجم ليونس بن حبيب ذكر هؤلاء الأئمة في شيوخه.

وكذلك ما زاده يونس بن حبيب من مرويات على سبيل المتابعات والشواهد كما في رقم (٣٦٤، ٩٩٢).

فلو أن أبا مسعود الرازي هو الذي صنف المسند ليونس بن حبيب -كما ادعاه أبو نعيم- لما كانت هناك حاجة في إيراد هذه الزوائد في المسند.

ولكننا نستفيد من قول أبي نعيم هذا: أن «المسند» ليس من تصنيف أبي داود الطيالسي، وفي هذا ترجيح قوي آخر لإثبات «المسند» ليونس بن حبيب.

❁ القول الرابع: أنه من جمع بعض المتأخرين من حفاظ خراسان:

ومن قال بذلك:

١- الحافظ ابن نقطة: قال في التقييد (٤٨٩): «ويقال أن هذا المسند جمع له -يعنى ليونس بن حبيب- مما وجد سماعه من أبي داود جمعه له بعض حفاظ الأصبهانيين».

٢- الحافظ السيوطي: قال في التدريب (١/ ١٥٧) متعقبًا العراقي: «وظن أنه هو صنفه، وليس كذلك، فإنما هو من جمع بعض الحفاظ الخرسانيين، جمع فيه ما رواه يونس بن حبيب خاصة عنه، وشذ عنه كثير منه».

٣- الحافظ الكتاني: قال في الرسالة المستطرفة ص (٦١): «وهو [جمع] بعض حفاظ خراسان، جمع فيه ما رواه يونس بن حبيب عنه خاصة».



جوابه:

١ - أن هـذا القول ظاهر البطلان، فأقدم مـن قـال بذلـك -فيمـا وقفت عليـه- هو الحافظ ابن نقطة، ولا يمكن أن ننسب هذا القـول إليه، حيـث نقله بصيغـة التمريض، ثـم إنه قال بعـد ذلك مباشـرة: «حدث عنه -يعني يونس بن حبيب- بالمسـند عبد الله بن جعفـر بن أحمد بن فـارس». هذا إقرار من ابن نقطة أن المسند كان بين يدي يونس بن حبيب.

٢- لـم يعرج أحد ممن نقـل هذا القول على اسـم ذاك الحافظ الخراساني المتأخر والـذي نسـب إليـه بتجميعـه «مسـند» الطيالسي.

٣- مَـن تتبع أقوال العلماء ممن تكلموا على «مسـند» الطيالسـي عَلِمَ عِلْـم اليقين أن «المسـند» كان بيـن يـدي يونـس بـن حبيـب وأنه كان مصنفًا في حياته، ومن هذه الأقوال:

أ- قـال ابن مردويه في «تاريخ أصبهان»: «محمـد بـن علي بـن محمد الجـارود أبو بكـر... روى «المسـند» عـن يونـس بـن حبيـب يعني مسـند أبـي داود الطيالسـي» التقييد (ص٨٨).

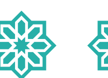
ب- وكذلـك قال أبو الشـيخ في طبقاته (٣/ ٥٧٩) في ترجمته ابن الجارود «سـمع المسند من يونس بن حبيب».

ج- وقال أبو الشيخ في طبقاته (٤/ ٢٩٩) في ترجمته محمد بن إسـماعيل بن سمويه: «وعنده عن يونس بن حبيب المسند».

د- وقـال ابن نقطة في التقييد (ص٣١٤) لمـا ترجم لابن فـارس: «حدث عن يونس بن حبيب بمسند أبي داود الطيالسي».

ففـي هذا الأقـوال كلها دليل -لا شـك فيـه ولا ريـب- علـى أن المسـند كان بين يدي يونس بن حبيب، وأنه كان يحدث به، وسمعه منه الكثيرون.

وإذا انضـاف إلـى هـذا الدليل ما سـبق بيانه في الأقوال الثلاثة -سالفة الذكر- تبين لنا -حقيقة- أن «مسـند» الطيالسي هو من تصنيـف يونس بـن حبيب راويـة أبي داود الطيالسي.




القسم الرابع: النصوص الأدبية



حديث العراق

[سلسلة أحاديث تصف رحلتي إلى العراق]

حسان الحديثي

في مطار لندن:

كانت السماء تنذر بعاصفة ثلجية حين خرجت في الثامنة صباحًا يوم الرابع والعشرين من شهر يناير البارد لأستقل سيارة الأجرة التي ستقلني إلى المطار، كان جو لندن يومها مليئًا بنثيث كثيفٍ بارد جعلني أضع حقيبة السفر في صندوق السيارة بسرعة وأندس داخلها كصغار الثعالب حين تلج جحورها عند إحساسها بالخطر.

نعم كان الوقت مبكرًا للذهاب إلى المطار بطرقات شبه فارغة بسبب جائحة كورونا والتي جعلت الناس في سبات البيوت، ولكني خُلقت هكذا أعيش بقلق الخوف من التأخر عن الموعد لذا تجدني حريصًا أن أصل قبل الموعد دائمًا بل أهون على قلبي أن أصل قبل الموعد بساعة من التأخر عليه دقيقة.

كانت الساعة تشير إلى دقائق قليلة قبل التاسعة حين وصلت المطار وموعد رحلتي الواحدة بعد الظهر قائلًا لنفسي: لا بأس بأربع ساعات من التسكع في أنحاء المطار ومَرافقه ومَطاعمه وأسواقه حتى يحين موعد الإقلاع، ولكن كل تلك التخيلات والأماني تكسرت على عتبات الواقع -كطبقة جليد تغطي بركة ماء تحت أقدام دب قطبي- حين دخلت صالة

المغادرة فوجدتها فارغةً إلا من بعض عمال التنظيف وموظفي شركة الخطوط الجوية، صامتةً إلا من مكبرات الصوت التي تعلن كل دقيقة عن وجوب الالتزام بتعليمات السلامة ولبس الكمامات وتعقيم اليدين في مبنى شبه خالٍ من البشر مضافًا إليه طبع الإنكليز في الإلحاح والمبالغة بضرورة اتباع الأنظمة والتعليمات.

حين أكملت إجراءات المغادرة على كاونتر شركة الخطوط ثم كاونتر الجوازات وانتقلت إلى صالات الترانزيت أحسست بوحشة تكاد تأكلني لا ينقصها إلا عصافيرُ السياب الخالد وديدانه التي تأكل جثة الصمت في «منزل الأقنان» حين يقول:

ذوائبُ سدرةٍ غبراءَ تزحمها العصافيرُ

تعدّ خطى الزمان بسقسقات والمناقيرُ

كأفواه من الديدان تأكل جثة الصمتِ

وتملأ عالم الموتِ

نعم هذا الجمود المخيف في اكثر الأمكنة لغطًا كالمطارات يحتاج أن يُكسر، هذا الصمت الموحش يحتاج إلى ضجيج يفتته ويرسله إلى ما وراء العودة ولكن كل شي مؤجل في زمن كورونا.

هناك أمر غريب يحدث معي في كل سفر، فأنا لم أسافر يومًا ولم أركب طائرةً أو قطارًا أو حتى حافلة إلا وكان السياب موجودًا معي يرافقني في رحلتي؛ أنشد بعض أشعاره وأردد مقاطع من قصائده، ولا يخلو الحال من بعض المطر، غير أني في هذه المرة ملت من السياب إلى سعدي يوسف لقصيدة أحبها وأجدها تلامس قلبي، كان قد كتبها سعدي في بعض أسفاره أظنه كان يومها في «فورتيسا/ لاتيفيا» فصرت أردد -وأنا أمشي في أروقة المطار- شيئًا منها:

سأرحلُ في قطارِ الفجرِ، شَعْري
يموجُ وريشُ قُبَّعَتي رقيقُ
تناديني السماءُ لها بُروقٌ
ويدفعُني السبيلُ بهِ عُروقُ
سأرحلُ... إنّ مُقتبَلِي الطريقُ
سلامًا أيها الولدُ الطليقُ!

هناك أمرٌ غريب آخر يحدث معي كلما قرأت شيئًا للسياب ومحمود البريكان وسعدي يوسف شعرت أنهم إخوةٌ في الشعر، تسري فيهم الدماء الشعرية ذاتها وينتسبون إلى أب شعريٍّ واحد واتصالهم بوادي عبقر بنفس الشيطان الشعري، فهل من موافق لي؟

ولكن رغم كل ما تقدم لا أكتمكم لقد مرت الساعات الأربع بطيئةً ثقيلةً موحشةً في مبنى هائل المساحة لا يوجد فيه أكثر من مئة مسافر أو يزيدون قليلًا، هو بالضبط كملعب لكرة القدم يتسع لعشرات الآلاف وفيه مئة متفرج فقط هكذا بدت لي الصورة حينها، لا بأس قلت لنفسي معللًا فأنا إنسان أحب المطارات حتى وهي فارغة وأجد لها عزاءً في نفسي وأجد لها بعض الفلسفةً أيضًا، فأوقات الانتظار فيها -رغم كل شيء- لا تخلو من الأُنس ويملؤها الحماس ويلفّها الدفء وأجدها تختلف عن بقية أوقات الانتظار، فهي بين اثنين؛ مسافرٍ منها وزائرٍ لها؛ فأما المسافر فهو أحد اثنين؛ قادم بشوق أو مغادرٍ بلوعة، وأما الزائر للمطار فهو بين حالين؛ متلهفٍ لعناق أو مضطربٍ لفراق.

وأرض المطار أرض طيبة لأنها مترعة بالحب ملآنة بالشوق والمودة، وإني أحسَبُ أن المطارات من أكثر الأماكن صدقًا للعواطف فمن لم يمسّه الشوق للقادمين لن يأتي لاستقبالهم ومن لم تُحرقْه جمرةُ فراق المغادرين لن يأتي لوداعهم.

والمطارات تحوي النقائض والتضاد؛ ففيها من البِشْرِ بقدر ما فيها من القَهْر وفيها من الغبطة والفرح ما يعادل الذي فيها الحزن والترَح.

وهي أيضًا أرضٌ ملأى بالدعاء، وفضاءٌ مكتظ بالرجاء، تحوي أفئدةً حاضرة العَبرة والخشوع، وعيونًا غزيرة الشجى والدموع، والناس فيها بين متأهب لركوب الفضاء أو هابط من أعالي السماء، ولو سئلتُ عن اسمٍ بديل للمطارات لأسميتها أرض الوداد فلو تبخرت عواطف الناس في المطارات لغام فضاؤها حُبًّا وشوقًا ولأمطرت سقوفها قلوبًا وأكبادًا وأفئدة.

غير أن حرارة الشوق والفراق التي كان يشعر بها ركّاب الطائرة يومها في داخل المبنى يعادله بردٌ جارف خارج المبنى سيما وقد بدأ للتو تساقط الثلج وبدأت الأرض تكتسي بالبياض مستدرجة العيون لمتعة النظر رأيت ذلك حين قام ثلة من المسافرين يمشون مسرعين باتجاه ألواح الزجاج العظيمة الحجوم الفاصلة بيننا وبين أرض المطار ومَدارجه ليروا أحد أجمل المناظر وأكثرها روعة وهي أن تنظر لمعالم البرد وتساقط الثلج من مكان دافئ، عندها تختلط فيك أحاسيس البرد

والدفء والشوق والسفر وتشعر أنك محاصر بالبكاء من كل جانب، فنحن الغرباء تقوم بين عيوننا شاهدة شاخصة ويعلو بين جوانحنا ضريح دائم.

غير أن تساقط الثلج بعث في نفسي شيئًا من الريبة والخوف فإذا ازداد تساقطُه وغطى أجنحة الطائرة سيتأخر السفر حتى يزال الثلج من فوقها وهذا يأخذ وقتًا، وقد حدث معي قبل بضع سنين في مطار شارل ديغول في باريس حين غطى الثلج طائرتنا فلم تقلع إلا بعد أن أزيل الثلج عنها فتأخر الإقلاع يومها لأكثر من ساعتين.

لم يكسر شعور الخوف والترقب إلا مكبرات الصوت ذات الأصوات البائسة وهي تعلن أن علينا التوجه إلى بوابة المغادرة فقد حان موعد السفر فلملمت أشيائي ومشيت باتجاه بوابة المغادرة، لكن الغريب أن رواق الممشى من صالة الانتظار إلى بوابة الصعود إلى الطائرة طويلٌ جدًا وبلا مسوغ، لماذا يجعلون طائرتنا على أبعد بوابة؟ وليس من طائرة مغادرة غيرها في ذلك الصباح المنجمد؟ ليس ذلك فحسب ولكننا فوجئنا أن بوابة المغادرة لا تصلنا بباب الطائرة من خلال خراطيم المطار كما هو معلوم ومعروف بل نحتاج إلى الخروج والمشي إلى سلم الطائرة تحت الثلج وبمواجهة ريح عاصف، استاء الجميع وأنا منهم ولكن استياءنا لم يكن ليغير من حتمية الأمر شيئًا فالإذعان في هكذا حالات أمر لا مناص منه.

كانت مسافة المئة متر التي مشيناها من بوابة المغادرة إلى الطائرة طويلةً باردة متعبة فكانت نهاية وجودنا في مبنى المطار تليق بالساعات البطيئة التي قضيناها في وحشة هيكل مبنى فارغ لا يحده مدى ولا يملؤه صدى، ولكني بقيت أردد: «سلامًا أيها الولدُ الطليقُ» وأنا أصعد سلم الطائرة ثم وأنا أمشي في الممر الوسطي بين المقاعد باحثًا عن مكاني بين وجوه منقبةٍ بكمامات تخفي تحتها الجمال والغضب والحزن والفرح ولا يبدو منها غير عيون متسائلة ومستفهمة عما يحدث وإلى ماذا سيؤول إليه الحال، أما أنا فمستمر بترديد «سلامًا أيها الولدُ الطليقُ» حتى استويت جالسًا في مكاني المخصص ولم ينهِ ترديدي لبيت سعدي يوسف إلا صوت طقةِ حزام الأمان وأنا أربطه حولي لأتسمر على مقعدي مع شعور بأني لم أعد طليقًا بعدُ حتى حين...

إلى أربيل:

طالما وقفت متحيرًا أمام فكرة حزام الأمان في الطائرات فهو في حقيقته لا يحمي من الموت البتة، ولكنه يحمي راكب الطائرة -بعد أن يموت- من أن يكون شيئًا متحركًا في فضاء الطائرة التي ستصبح -عند تعرضها لحادث- كخلاط سيدات المطبخ الذي يفرم الأشياء ويحيلها إلى خليط لزج ويحيل الأشياء المعروفة إلى منكرة الشكل واللون والملمس، هذا لا ينفي أن الإحصائيات تضع الطائرات واسطةَ النقل الأكثر أمانًا بين وسائط النقل، ولكني في الحقيقة أرى وسائط النقل كلها أكثر أمانًا وثقةً من وسائط التواصل الاجتماعي.

بغضّ النظر عن كل ما تقدم، شخصيًا أحب لحظات إقلاع الطائرات وأشعر أنني لا أحتاج في تلك اللحظات إلا إلى ترك التفكير بأي شي والتفرغ للاسترخاء والتأمل بعظمة صنع الله لعقل الإنسان الذي أبدع كل هذا الإبداع. فهذه اللحظات -بالإضافة إلى مزيج الخوف والتوجس والسعادة الذي تبعثها في النفس- هي تغيير كونيٌّ لطبيعة الخلائق بل هي أشبه بلحظات اختراق الناموس، والناموسُ هو قانون الأشياء وشريعتها وطبيعتها في الخلق والتكوين والتأثير، فالإحراق هو ناموس النار والإغراق هو ناموس الماء وهكذا، وما نجاة إبراهيم من النار ومشي عيسى على الماء إلا معجزات عطّل بها الله طبيعة النار والماء في الإحراق والإغراق..

والطيران هو طبيعة الطيور وسبيلها في الانتقال وعندما يطير الإنسان أو يغوص في أعماق البحار والمحيطات فهو في الحقيقة يأخذ من الطيور والأسماك طبعها وطبيعتها وذلك كله كسر لناموس الحياة، ولو طار الإنسان في العهود القديمة لآمن به من حوله من البشر ولاعتبروا صُنعَه معجزةً من المعجزات لأنه أمر خارق لطبيعة الزمن والبيئة اللذين يعيش فيهما.

ولحظة إقلاع الطائرات فيها إحساس هائل الجمال فأنت -وان كنت حبيس أسطوانة طويلة يمتد في جنبيها جناحان عظيمان تخترق بهما الفضاء بسرعة عالية- إلا أنك -أيها الإنسان- استعرتَ من الطير طبيعته واخترقت بالعلم ناموسه الأزلي والأبدي، بل وتجاوزته في الارتفاع والعلو

إلـى طبقات لا يسـتطيع الطيـر بلوغها، فيا أيها المحلّقون في الطائرات تمتعوا بأوقات تحليقكـم فإنهـا أوقـات انتصـار عظيمـة للإنسان كسَر بها الناموسَ بالعلم.

كانت الرحلة التي دامت أربع سـاعات ونصف من لندن إلى إسـطنبول آمنةً هادئةً مستقرةً لم يشبْها اهتزاز ولا تأرجح، اللهم إلا ميـلانٌ خفيفٌ عند الاسـتدارة واهتزاز لطيـف في لحظـات الهبـوط والتـي كنت قد وصفتها يومًا فقلـت عن الطائرة لحظة هبوطها: إنها تجري على المدرج كالسهم وتلامس الأرض كمفلطح الحصى يُقذف به وجهُ الماء.

كان مطار إسـطنبول علـى النقيض من مطـار لندن في الضجيـج والازدحام وكأن مَن فيـه من البشـر يعيشـون خـارج زمان كورونـا؛ طائـرات تهبـط وطائـرات تقلع ومسـافرون قادمون من وجهـات مختلفة وراحلـون إلـى وجهـات مختلفـة، لقـد وقفت طويلًا أمـام توصيف المطار؛ كيف وبمـاذا أشـبهه فوجـدت أنـه أشـبه بمبنى البريد الذي يسـتلم الرسـائل والطرود من أنحـاء مختلفـة ليعود ويرسـلها إلى أنحاء أخـرى مختلفة لكن الاختلاف بين مكتب البريـد والمطـار أن البريـد محطـة اتصال للجمـادات والمطـارات محطـة اتصـال للجمادات والبشر على حد سواء.

الشـيء المميـز في مطار إسـطنبول أنه عامـر بالمطاعـم والمقاهـي التـي تقـدم الوجبـات والأطبـاق التركيـة المحليـة لا كبقيـة المطـارات التـي تقـدم في غالبهـا الوجبـات العالمية المنتشـرة أو ما يسـمى اصطلاحًـا بـ»مطاعم الوجبات السـريعة« وهذا أمر يحسب للأتراك في هذا الاختلاف الإيجابي، كما أن أروقته ومَرافقه ونواحيه قادرة على القضـاء على أوقات الترانزيت والانتظار التي يعاني منها المسافر في بعض المطارات الأخرى ولا ننسَ أن إسـطنبول تصل العالَم بمدن في آسـيا وبلدان القوقاز كذلـك بلدان آسـيا الوسـطى الممتدة من بحـر قزويـن غربًا حتـى الصيـن ومنغوليا شـرقًا، ومـن أفغانسـتان جنوبًـا حتـى السـوفيت وجمهورياته المنحلة شـمالًا. وهـذه الرقعـة الجغرافيـة لم نطّلـع عليها جيدًا وعلى طبيعة سـكانها كاطلاعنا على جغرافية وطبيعة أفريقيـا وأوروبا وأمريكا بالإضافـة إلى جغرافية الشـرق الأوسـط والعالـم العربي لأجل ذلـك ترى في مطار

إسـطنبول من الناس والأجناس ما لا تراه في مطـارات العالم الأخرى. ولأجل ذلك أيضًا انقضت الساعات الأربع بلا ضجر أو ملل لتنطلق بنا طائـرة أخرى إلى الجنوب الشـرقي، إلـى أرض الحضـارة الأقـدم والأخصـب والأعرق، إلـى أرض التضاد والمفارقـات والعجائـب إلـى الأرض الأكثر حظًا في هبوط الأنبياء والأسوأ حظًا في سفك دماء الأولياء، الأرض التي انطلق منهـا قانـون العـدل لتعيـش تحـت وطأة الظلـم والاسـتغلال، الأرض التي انبثقت منها حـروف الكلام والحسـاب والأرقام لتتأخر عن ركب العلم والمعرفة، الأرض التي أنجبت العلماء والأطباء ليسافر أهلها إلى بـلاد الهنـد والـترك للتطبـب وطلب الـدواء والشـفاء... إنهـا أرض العجائـب والمتغيرات حقًا إنها أرض ما بين النهرين.

أقلعـت الطائرة المتوجهـة بنا إلى مطار أربيل السـاعة الحادية عشـر والنصف ليلًا وكانت رحلة آمنة هي الأخرى ولم ينغص عليَّ متعة التحليق سـوى مضيّـف الطائرة الـذي اتخذني هدفًا له؛ كلما نزلتْ كمامتي قليلًا من على أنفي اقتنصني من بعيد وجاء مسـرعًا ليطلب مني لبسـها بشكل صحيح بحيث تغطي الأنف والفم، لقد أثار حفيظتي بتركيزه عليَّ دون بقية المسافرين فلم يكن أمامـي إلا الاحتيال عليه حين ملأت كوبي ذا النصف لتر والحافـظ للحرارة –والذي أحمله معي دائمًا– ملأته بالشـاي وأزحت كمامتي كليًا لأتمتع بارتشـافه حسـوة بعد حسـوة على ارتفـاع خمسـة وثلاثين ألف قدم وكلمـا طلب مني ذلك المضيّف لبس كمامتي تعذّرت له بشرب الشاي، ساعتان ونصـف من المضايقة والإغاظـة المتبادلة بيني وبينه حتى حطّـت بنا الطائرة في مطار أربيل عاصمة كردستان العراق.

أربيـل مدينـة في شـمال العـراق ذات أغلبيـة كردية والشـعب الكـردي يمثلون جـزءًا أصيـلًا مـن شـعب العـراق كما أن هنـاك تمازجًا وتزاوجًا قديمًا بين العرب والكـرد وتشـابهًا في بعـض الطبـاع ونظام المعيشـة والحياة، تغيَّر بعضها في السـنين الأخيـرة وبقـي الأغلب كما هـو، وأربيل هـي المدينة الأكثـر تنظيمًا وترتيبًـا وأمانًا بيـن مـدن العـراق وقد نـأت بنفسـها عن المشـاكل في مـدن العراق الأخـرى وهذه الأسـباب جعلـت السـياحة والاسـتثمار والإقامـة فيها هدفًا لكثير من العراقيين لذا

لا يجد العراقي اختلافًا من حيث الطبيعة والحياة إلا اليسير الذي تفرضه عادات وتقاليد الشعب الكردي فيها.

كانت الساعة تشير إلى الثانية صباحًا من يوم الخامس والعشرين من شهر يناير حين هبطت الطائرة وكان المطار هادئًا ودافئًا وفارغًا أيضًا إلا من مسافري الرحلة التي وصلتُ عليها للتوّ ويبدو كل شي في المطار مرتبًا وجميلًا ولم تفُت إلا دقائق لأنهي إجراءات الوصول واستلام حقائبي ليكون وجه صديقٍ لي أوّل وجه ألاقيه في المطار بعد ست سنوات لم أره فيها، كل شيء فيه كما هو؛ طبعُه ولطفُه ووجهُه الضاحك سوى بعض الشعرات البيضاء التي نبتت بسالفتيه الفاحمتين...

لم تكن نهاية الرحلة في أربيل، فصديقي الجميل هذا كان قد جهّز لي سيارةً تقلّني مباشرة من أربيل إلى العاصمة بغداد، فلم أكن أريد التأخر كثيرًا في أربيل إلا قدر ما أجبرني عليه صاحبي لشراء خط تلفون والتزود ببعض قناني الماء ولفيفات لسد جوع الطريق وإعادة ملء كوبي الأنيق بالشاي العراقي المعطر بالهيل من أحد مقاهي الأحياء الشعبية في أربيل، كانت الساعة تشير إلى الرابعة والنصف حين بدأت رحلة جديدة ولكن برًّا هذه المرة إلى بغداد، انطلقَ بي سائقي فجرًا إلى الجنوب فعاودتُ ترديد أبيات سعدي يوسف:

سلامًا أيها الولدُ الطليقُ
حقائبُكَ الروائحُ والرحيقُ
ترى الأشجارَ عندَ الفجرِ زُرقًا
وتلقى الطيرَ قبلكَ يستفيقُ
سلامًا أيها الولَدُ الطليقُ



خلف الباب

[تابعٌ للمشاهد في العدد السابق]

زينب الأزبكي

المشهد الثالث: حبُّ نبيل

لم نفترق يومًا حتى كبر إخوتي وتزوجوا وغادروا القرية بعيدًا إلى صخب المدينة وأضوائها الساحرة..

وحصلتُ بشهادتي المتواضعة على فرصة عمل خارج البلد، حيث الوجوه الصفراء الغريبة وعجمة اللسان واللغة التي بدأتُ بفكّ رموزها قبل أشهر قليلة، أقف الآن أمام بابنا الخشبي الذي طالما جلست أقنع أبي لنغيّر لونه دون جدوى..

وأرى (ترمز الشاي) الذي طالما كان مردوده المادي يساعد أبي في مصروف البيت إنه لأخي (نبيل)..

آااه يا نبيل.. ولدتَ وأنت أصم وأبكم ولكنك كنت أكثرنا إحساسًا بالمسؤولية.. كنت نبيلًا حقّا..

اعتاد أن يستيقظ فجرًا ليعد الشاي ثمّ يفرغه بالترمز ويتوجه إلى الشارع العام ليبيع بابتسامة ناعسة أكوابا مليئة بالشاي عالي السكر نكاية بمرارة مايشعر به، كنت أنا الأصغر أراقبه وهو ينظر لـ(نظيرة) بائعة (الجرك) أو (السميط) الرقيقة ذات اليدين الصغيرتين، فترمقه بنظرة إنني أراك، ثم يجلسان بعد أن أنهكهما الرواح والمجيء مع السيارات والمارّة، وأرى شفاه (نظيرة) تتحرك ونبيل يصغي بانتباه ثم يضحكان وتارة أرى دموع نظيرة..

بعـد أشـهُر انقطعت نظيـرة وظل نبيل يترقـب مجيئهـا كل يـوم دون جـدوى، مرض نبيل وبدأ جسـده يوهن شيئًا فشيئًا، ثـم سـمعتُ أن نظيـرة تزوجـت، وهنـا أدركتُ أن نبيلًا عرف ذلك من قبل فانفطر قلبـه.. لم نسـتطع عـلاج نبيل حتـى أتاه الأجل.. افتقدت بعده كل الجمال والنبل في الحيـاة، بعدهـا ظللـت أفكر بـأي لغة كانت تتكلم هذه النضيـرة نظيرة؟ وكيف كان أخي يفهمها؟ كيف كانا يتواصلان؟

ربما هناك لغة لم نكتشفها بعد، ولكنني أعرفهـا الآن، إنها لغة المعذبين بداخلهم، الباسمين لغيرهـم.

علمت بعدها أن نبيل مات بجرعة زائدة من الإنصات واحتقان الكلام بداخله.





المشهد الرابع: شطيرة برجر

عشـرة أفراد وأمّ خلف هـذا الباب، لم يـترك لنـا أبي إرثًا سـوى راتبـه التقاعدي وبتدبير أمّي وسياسـتها الاقتصادية نعيش باكتفاء.

صباحًـا، خبز التنور الحـار مع ما توفر مـن الجبـن، وإن لـم يتوفـر فـإن الخبز والشاي كان اللذيذ الغالب.

كان اسـتيقاظ أمّـي هـو إعـلان بدايـة اليوم، نشيطة وإن ظهر عليها تعب الأمس، باسـمة الوجه وإن كانت هموم مصاريف أخي في الجامعة أنهكت تفكيرها، تمشـي بكبرياء وإن أعلن الأقـارب تخليهم عنها لزواجها الفاشل في قرية نائية.

لم تسـمع يومًا بطعام يصـل إلى الباب حين الطلـب، أمّي بسـيطة تعيش في زمن الطيبين، حيث كل شيء مصنوع باليد بعناء وتعـب، ولن ترضـى دون ذلـك، وكانت نفوسنا التي تراودنا أن نطلب من المطعم -الذي لن تسـمح أمي بدخول طعامه إلى البيـت لاعتباراتهـا الاقتصاديـة والصحية الخاصة- لا تكفّ عن المراودة..

وكالمعتـاد تصبّ أمّي حسـاء العدس الذي لا يشـبه حسـاء إحداهن وأسـتطيع أن أعرفـه من بين آلاف الأطبـاق لرائحته الزكيـة ولونـه الأصفـر الفاقـع وهـذا هو عشاء كل يوم!

قرّر أخي ودون علـم أمّي وباتفاق معنا أن نطلـب (شـطائر البرجـر) التـي طالمـا



تمنينا أن تكون عشاءً يوميًا بدلًا من العدس، وكانت الخطة أن نأكل من عشاء أمّي ما نسدّ به الرمق ثمّ حين تنام سيصل الطلب فنستمتع بالشطائر دون علمها.

أكملنا وجبة العشاء وبان على أمي النعاس والتعب وأوصتنا بترتيب المكان قبل النوم وذهبت وهي تخط برجليها الأرض من التعب.

وأخيرًا، شطائر البرجر بين أيدينا، أكلنا الشطائر كما لو أننا ننقض على فريسة! عجبًا ما بالنا!

وفي لحظة سعادة وانتشاء وما زلنا نمسك ببقايا البرجر وأكياسه، إذْ بأمّي تظهر..

عمّ الصمت المكان ولم ننبس ببنت شفه كأن على رؤسنا الطير!

«لا تنسَ يا أحمد دواء الضغط، لقد نفدت آخر حبة من أمس».

هذا ما قالته أمي وذهبت إلى الفراش مرّة أخرى.

بدأنا نسأل بعضنا الآخر هل لاحظت أمي؟ هل عرفت ما كنا نأكل؟ هل.. هل..؟

صباحًا، وكالمعتاد بدأ الصباح باستيقاظ أمي وذهبنا كلّ إلى عمله ومرّت هذه الأيام دون ابتسامة مشرقة ولا نشاط يلاحظ وبعشاءات ليس لها طعم، لم يعد العدس يتميز بنكهة ولم يعد لونه يسرّ الناظرين.. وبدأ التعب يأخذ من أمّي مأخذه، وأخيرًا صارت طريحة الفراش حتى توفاها الله.

أعلم يا أمّي أنك درست فقه (يوسف) بالاقتصاد دون مدرسة، وستتفوقين على (مارثا ستيوارت) في تركيب الطعام وطهيه، وأعلم أنك أمهر من منال العالم، ولن تقصّري لو طلبنا منك عمل البرجر وأحضرنا لك الطريقة، لكننا للأسف استبدلناك بشطيرة!

كيف أخبرك يا أمّي أنني أشتاق لكل ما تصنعه يدك؟

آاه كم أشتاق لطبق العدس، هل عندكم مَن يعدّه مثل أمّي!؟







الهروبُ من الإطارِ

قصة: عبد الرحمن بن إلياس

حين دخلتْ البيتَ وحيدةً كانتْ عتبةُ بابِها عاليةً فخانَها عكازُها وسقطتْ تئنُّ بحرقةٍ ودمُها المتدفقُ من تشققاتِ جلدِها الذي رقّقه الزمنُ حتى جعلَهُ واهيًا يرسمُ لوحةً حزينةً.

لم تنادِ أحدًا، فهي وحيدةٌ في منزلِها فظلّتْ منكبةً على العتبةِ تنتظرُ شيئًا قدْ يكونُ الموتَ.. لكنَّها أحسَّتْ بيدٍ رفعتْها عن الأرضِ وأجلستْها على الأريكةِ قبالةَ صورةِ ابنِها المعلقةِ التي أذهلتْها فهي خاليةٌ من كلِّ شيءٍ إلا الإطارَ وشارةَ الحِدادِ

التفتتْ لترى رجلًا مرتديًا ثيابًا خضراءَ زاهيةً، وجهُهُ يشعُّ نورًا، عيناهُ تلمعانِ ببريقٍ ذهبيٍّ، يدُهُ مطرزةٌ بأجودِ أنواعِ العقيقِ، نعلُهُ من ذهبٍ، عليهِ هيبةُ ملكٍ، وشجاعةُ أسدٍ، إذا سارَ نما الوردُ في موطِئ أقدامِهِ، وفاحَ العود والمسكُ من جسدِه.

أدارتْ نظرَها فرأتْ بيتَها قدْ تغيرتْ ملامحُهُ فالأنهارُ تجري من تحتِهِ والأشجارُ تظللِهُ، جدرانُهُ أصبحتْ ذهبًا، وأسقفُهُ عقيقًا، وأرضُهُ جوريًّا منمقًا تطيرُ فيهِ طيورٌ جميلةٌ لا عدادَ لها وتغردُ فيه..



كانَ وجهُ الرجلِ غيرَ واضحٍ فبادرتْهُ بالسؤالِ وهي متعجبةٌ:

- من أنتَ؟

- أنا.. أنا ابنُكِ الشهيدُ.

- حالُك عجيبة.

- نعم أمّي، هذا تكريمٌ حصلتُ عليهِ منذُ أنْ قُتلتُ.

- وما الذي أتى بكَ؟

- رأيتُكِ واقعةً في أحدِ أنهارِي الذي يعكسُ صورتَكِ فهببتُ لمساعدتك.

تهللتْ أساريرُها وفرحتْ واقتربتْ منهُ وقبلتْهُ على جبينِهِ وأرادتْ أنْ تحتضنَهُ لكنَّهُ ارتفعَ وعادَ إلى داخلِ إطارِ صورتِهِ وأخذَ كلّ شيءٍ معهُ وتركَها على الأريكةِ وحدَها، وقبلَ أنْ تسكنَ حركتَهُ قالَ لها سنلتقي حتمًا أماهُ.



لو أنَّها تقرعُ هذا البابَ

شعر: مهدي نصير

(١)

تفتَّحتْ أزرارُ مِعطفِها

فانبثقَ الوردُ كشلاَّلٍ

من المطرِ اللذيذ .

(٢)

كنتِ تدوسينَ التَّعاويذَ التي سقطتْ

على ثَنْياتِ مِعطفِكِ الطَّويلِ

وتشهقينَ كغصنِ لوزٍ

ضجَّ بالبراعمِ البيضاء .

(٣)

أقولُ لها : لا تخافي

تعالي قليلاً

إذا جئتِ سوفَ أُريكِ السَّماءَ

وأُعطيكِ كلَّ عصافيرِها

ومفاتيحَ أبوابِها المُغلقةْ .

(٤)

إذا جئتِ سوفَ أُعلِّقُ فوقَ هضابِ المدينةِ

ناياتِها

وكمنجاتِها وأساورَها

وخواتمَها

وعطورَ أنوثتها الغابرةْ .



(٥)

لو أنَّها تقرعُ هذا البابَ

تدخلُ مثلَ نجمةٍ

وترقصُ حولَ موتي

بالخلاخيلِ الثَّموديَّةِ

تُشعلُ في الفِناءِ جمرةً من الأنوثةِ القتيلةِ

توقظُ الموتى بنايها

وتستريحُ قربَ ماءِ الليلِ ..

لو أنَّ يديها تُلامسُ شعريَ اليابسَ

لـو أنَّ جدائلَهـا تُطـلُّ كطفلـةٍ مُبتلَّـةٍ بالشَّهوةِ والماء

لو أنَّها تأتي لأطلقتُ الحَمامَ من الطَّبيعةِ

نحوَ غاباتِ السَّماء.

سَفَر

شعر: سندس أبو السمن

(١)

باهِتٌ هذا الوُجودُ،

نهارُهُ كاللّيلِ ظلٌّ مُوحِشٌ، عبَثٌ..

غُبارٌ يرتَديهِ، ويُسقِطُ المَعنَى على أنقاضِهِ،

لا وقتَ فيهِ يَدورُ حسْبَ زَمانِهِ؛

فالرّيحُ بدّلتِ العوالِمَ،

واستفاقَ الطّينُ عنْ جسَدٍ بِلا ماءٍ؛

تُرابٌ في مهبِّ الموتِ

أو شبَحٌ جريحْ.



هادِئٌ صوتُ التّرابِ وقاحِلٌ، طَلَلٌ..

رُكامٌ عالقٌ وجهُ الحقيقةِ تحتَهُ،

لَمْ يبقَ غيْبٌ يَرفَعُ النّفسَ الخفيفةَ بعدَهُ،

فالصّوتُ ممحوٌّ،

وهذا القلبُ، لا نجمٌ يلوذُ إليهِ منْ كفّ السماءِ هُناكَ،

أو ضوءٌ شحيحْ.



هالِكٌ غيْضُ الحياةِ..

يباسٌ انبعَثتْ إليهِ الرّوحُ دونَ سحابَةٍ،

بُثّتْ لـهُ الصّلواتُ عارِيَـةً عن المَعنى،

غناءً بارداً،

وصدىً يُجفّفُ فِي هَزيعِ الّيلِ جهراً
دِفءَ أجراسِ المسِيحْ.

(٢)

لِي ملائِكَةٌ هُنالِكَ طيّبونَ، ويصعَدونَ
سلالِمَ الغيْبِ البعيدِ،
يُحدّقونَ بِصرخَةٍ حطّتْ علَى جَسَدي،
فنِمتُ، ولَمْ أطِرْ؛ من ثُقلِ ما حمَلتْ يدايَ، تَلكّأتْ فِيّ المسافَةُ
لا سماءَ قريبةٌ تَدنُو هُنا حتّى أعَلِّقَ حولَ أخضَرِها غيابَ اللّونِ عن سَفَري،
وأُمعِنَ في البهاءِ.
الضّوءُ أبعدُ، والظلامُ يفيضُ عنْ جنبيّ،
لا جبلٌ ليعصِمنِي؛ فَمُدّي يا رحيمةُ يا سماءُ
لعلّ ما فوقَ اليَباسِ هُنا حياةٌ تَنشِلُ الوَهمَ المُعلّقَ:
«.. لمْ تكُن هذِي النّهايةُ،
لمْ أكُنْ طيناً بدائيّاً ينامُ بصرخةٍ،
يغفُو على عجَلٍ، لتبتلِعُ الحقيقةُ ماءَهُ؛
ويَغطَّ في هذا الضّريحْ..»

(٣)

عالقٌ بينَ الأحاجِي؛ الوقتُ
والأسطورَةُ الأولَى عنِ النّسيانِ، أو قلَقُ المكانِ،
وما وَرثتُ منَ الخَيالِ المحضِ،
أوْ مِن حِكمةِ الطّينِ التي تُليَت علَى عقلِي الرّجيحِ.
سَهوتُ عَنْ نفسِي،
وعنْ خوفِي الذي قدْ جفَّ حينَ تَخفّفَتْ منّي يَدايَ،
وَلملَمتْ فِيَّ البصيرَةُ نَفسَها،
لا وهمَ ينمُو الآنَ، لا شَيءٌ يَموتُ سِوى يَباسِ الطِّينِ
أو ظلٍّ ذبيحْ.

❁ ❁ ❁

خالِدٌ مِثلِي المَجازُ،
يَطيرُ مِن مبنىً إلى معنىً،
ويَترُكُ خَلفَهُ مثلِي الحَياةَ مِظلّةً للريحْ.
قبّلتُ طينِيَ، وانتبَهتُ،
لأصعَدَ الغيبَ الفسيحْ.

«The Last Sound»

اللّوحة: الصوتُ الأخير

للفنّان السودانيّ: إبراهيم الصلحي



اختيُـرتِ اللّوحـةُ لِما علِق مـن معانِيها ورموزِهـا في قعرِ الذاكرة، فهِيَ سـفَرٌ جليّ وعبورٌ إلى الماوَراءِ، وليسَ في وُسعِ القصيدَة إلّا أن تكونَ مثلَها وأَبعَد، سفرًا لا مُنتهِيًا، وتجلّيًا في الماوَراء.



وطن الأيتام

شعر: د. غزوان علي ناصر

يا ربُّ أطفالُنا كمْ عاتبوا القدرا ... وزهرُ أحلامِنا مِنْ يأسهِ كفَرا

لمْ يعرفوا فرحةً في العمرِ طافحةً ... قد أورقتْ سنبلاً أو أثمرتْ شجرا

أثوابُنا السُّودُ أسمالٌ ممَّزقةٌ ... والجفنُ ما عانقَ الأضواءَ فانكسرا

آلامُنا كثيابِ الحزنِ نلبسُها ... نرتِّلُ الآهَ في أحداقِنا سوَرا

لا بؤسَ في الأرضِ إلاّ جرحُ غربتِنا ... دربُ السَّلامةِ لمْ نبصرْ لهُ أثرا

العيدُ جاءَ ولمْ ندخرْ لهُ فرحًا ... وضوؤهُ شاحبٌ في عينِ مَنْ نظرا

رغيفُنا الدَّمعُ بالأشواكِ نعجنُهُ ... ونُطعمُ الصَّابَ والشُّوانَ والحجرا

سُرَّاقُ أحلامِنا لمْ يتركوا أملا ... مِنْ أرضنا سرقوا الأفراحَ والقمرا

ويشهدُ اللهُ أنَّا معشرٌ أُنُفٌ ... نموتُ عزًّا وما نستعطفُ الأُمَرا

ونرضعُ الجوعَ مِنْ أثداءِ طاهرةٍ ... حتّى كبُرنا فما نستعظمُ الخطرا

نغمِّسُ الخبزَ في ملحٍ ونأكلُهُ ... وما نمدُّ يداً نستجديَ الحُقَرا

مَنْ ينقذُ الوطنَ المذبوحَ مِنْ زمرٍ ... غطّوا على الشَّمسِ كيما يسرقوا الثَّمرا

يا أمُّنا كبرَ السُّراقُ في بلدي
بطونهم أُتخمتْ بالسُّحتِ وامتلأتْ
بفضلِهم صارَ حكمُ اللهِ مزدريًا
ويلٌ على وطنٍ نشقى بهِ أبدًا
موبوءةٌ مُدني والجهلُ مزَّقها
مثلُ الخرافةِ فيها الحقُّ مغتربًا
أيا بلادًا على أحرارِها سحقتْ
أعطتْ مقاليدَها للجورِ خانعةً
أضحى بها الحرُّ منبوذًا ومُمتهنًا
وكلَّما جاءَهم باللهِ معتصمًا
خذوا المناصبَ واستبقوا لنا وطنًا
كمْ أيقظَ العيدُ أحزانًا لأرملةٍ
يلهو بنا الموتُ ألعابًا مُفرقعة
العيدُ يمعنُ من أوجاعِنا هربًا
يا عيدُ عُدْ لا تزدْ بالقلب موجعةً
جراحُنا لا مراجيحٌ تهدِّهدُها
لا يطرقِ العيدُ أبوابًا لمنْ فجعوا
يا صاحبي نهبَ الأوغادُ بيدرَنا
كمْ ضللوا الناسَ في دينٍ وفي ورعٍ
مرَّتْ بنا سنواتُ القحطِ لاهبةً
لابدَّ يومًا يفيضُ الغيظُ مِنْ ألمٍ

والحاكمونَ نرى إيمانَهم كفَرا
هم الوحوشُ أراهمْ لا أرى بشرا
والظُّلمُ قدْ عمَّ كالطاعونِ وانتشرا
أقصى أمانيهِ أنْ يحيا ويزدهرا
حكَّامُها صادروا الأطفالَ والشُّعرا
يضمُّ أسمالَهُ غيضًا بما أنفجرا
وأقبلتْ خلفَ مَنْ خانوا ومَنْ فَجَرا
وحاربتْ ضدَّ عدلِ اللهِ فانتحرا
حتّى إذا صاحَ غيضًا قيلَ سوفَ ترى
رموا على خطوهِ الأشواكَ والحجرا
كيما يعيشُ بهِ الأيتامُ والفقرا
بكتْ من الفقدِ حتّى أدمتِ البصرا
لونُ الدِّماءِ على شفْراتِهِ أنشطرا
حتّى توارى عن الأنظارِ واستترا
نحنُ الغيابُ على صلبانهِ انتحرا
مسارُها ضجَّ بالتَّنهيدِ واستعرا
ويذبلُ الظِّلُ في جدرانِها كدرا
ونرقبُ اللهَ أنْ يأتي بهمْ خبرا
كي يأكلوا خبزَ مَنْ في جوعهِ قُهرا
نصارعُ الفقرَ والحرمانَ والضَّررا
ويجرفُ السَّيلُ ما قدْ كانَ مستترا